أصوات

قصة بقلم سليمان فياض

١ ـ عودة الغائب :

كانت الساعة العاشرة تماما . جلست الى مكتبي ، وفككت أزرار سترتي العلوية ، لأجفف عرقي ، وأخفف من شعوري بالرطوبة والاختناق . جاءني العسكري بقهوة الصباح، فرحت اشربها على مهل، وعيناي تجوسان في صحيفتي اليومية المفضلة . ثم تصفحت تقارير الضابط المعاون عن حوادث امس . لم أجد فيها شيئا يستحق الاهتمام . الحوادث والجرائم المعتادة كل يوم، والتي ألفتها ، اصبحت لا تثير فيّ اية دهشة . طويت الملف ، واسندت خدي الى قبضة يدي ، ومرفقي الى مسند المقعد ، وشردت خواطري في اشياء كثيرة غير محددة .

فتح العسكري الباب ، دفعه ، ودق قدما بالأخرى . لم يكن البريد قد حان موعده بعد ، لكنه قدم لي مظروفا ، بدا لي من شكله ، ومن لقبي الوظيفي المكتوب تحت مستطيل من السلوفان في غلافه ، انه برقية . شعرت فجأة بالاهتمام . وتوقعت خطرا ما ، أترقبه دائما عندما ارى اية برقية . تصنعت الرزانة ، وأشرت الى العسكري فانصرف ، وفضضت الغلاف بلهفة . وشعرت في الحال بدهشة بالغة، احسست معها انني استيقظ الان فقط من نوم طويل . كانت البرقية قادمة من اوربا ، من باريس بالتحديد . تأكدت من الغلاف ثانية انها حقا مرسلة الي انا . ولم تأتني على سبيل الخطأ . جرفني فضول حاد لمعرفة ما بها . كانت فيها هذه الكلمات :

«سيدي المأمور : ارجو ان تساعدني في البحث عن اهلي . من بقي منهم على قيد الحياة . لقد غادرت قريتي : «الدراويش» ، منذ ثلاثين عاما ، وعمري عشرة اعوام . وفتح الله عليّ منذ سنوات ، فصرت من اغنياء باريس . وأشعر الان بالحنين العميق الى رؤية اهلي وبلدي ، ومد يد العون اليهم ما وسعتني القدرة . اسمي «حامد مصطفى البحيري» ولن تعدم من يعرف عائلتي في الدراويش . وأرجوك ان تخبرني ببرقية على عنواني المذكور ادناه ، بكل ما ينبغي ان اعرفه الان . وبرقيتكم المنتظرة اليّ ، سأقوم بدفع تكليفها ، وآمل حين نلتقي ان نصبح صديقين » .

كانت البرقية مرسلة ، كما تقول التواريخ التي تحملها ، منذ اسبوع ، من باريس . وأبلغت الى القاهرة في نفس اليوم . وقدرت ان مواطني الناجح ، الغني ، يقتله القلق الان . وربما يساوره اليأس . ومن عادتي الا اهتم بمثل هذه المشاعر لدى الآخرين ، خارج دائرتي الخاصة ، وعلاقاتي الشخصية . لكن المسألة بدت هامة لي ، وعاجلة . فحامد مصطفى البحيري ليس ، الان ، شخصا عاديا . وهو لا يقل جدارة باهتمامي عن اي مواطن ، وله من الحيثية ما يثير من حوله ، ومن اجله ، كل اهتماماتي ، بحكم منصبي كمسئول عن الأمن. لذلك قفزت من مقعدي ، وبدأت اهتم شخصيا بهذه المسألة النادرة الحدوث ، والتي ينبغي ان تكون لي فيها اليد الطولى ، في تحقيق امنية انسان غير عادي ، والوصول بها الى خاتمة سعيدة ، لا شك انها ستعود عليّ ايضا بالخير . لم اكلف احدا سواي بهذه المسألة، ولم ارسل من يطلب عمدة الدراويش لسؤاله ، وأخذ المعلومات منه . امرت العسكري باعداد سيارتي الحكومية الخاصة . وصحبته معنا الى الدراويش . فطار بنا السائق اليها ، برغم وعورة الطريق .

***

فجأة ، وعلى غير موعد ، اختل نظام الكون في اعيننا ، وعقولنا. حدثت ضربة قدر مفاجئة ، قادمة من المجهول ، من عالم الغيب الذي لا تدركه ابصارنا ، ولا ترقى اليه عقولنا . الشمس تشرق لم تزل ، وتغرب ايضا في موعدها . النجوم لم تزل تبزغ في الليل نجمة اثر نجمة . والطيور ترفرف بأجنحتها مع الشروق والغروب . وهامات الاشجار ، والنباتات ، تهتز من حولنا ، مع كل هبة نسمة . اطفال جدد قد ولدوا صباح اليوم ، وآخرون قد ماتوا في قريتنا ، والقرى القريبة ، حولنا ، التي نعرفها (من السيالة الى كفر اللبان) ، ومن كافة الاعمار ، ومن الجنسين : الخشن واللطيف . كل شيء يحدث كما هو . مياه الغسيل والاستحمام تسكب في الازقة والحارات ، محملة بذوب الصابون والعرق ، جالبة في اثرها الذباب ، ومناقير البط والأوز والدجاج . الحمير تنهق ، والكلاب تنبح ، والبهائم تزعق طلبا للطعام ، كالاطفال الذين يخوضون في برك المياه الضحلة ، المتبقية من اجساد آبائهم وأمهاتهم ، اللاتي يفلين شعور البنات فوق الأسطح ، وأمام الدور ، يمشطنها بالجاز ، وأمشاط العظم السوداء والبيضاء . ومؤذن المسجد ينادي المصلين الى جامعه المظلم ، القديم الرائحة ، مع كل بداية رحلة جديدة ، لحركات الشمس الاربع ، في سماء قريتنا ، ثم مع بزوغ نجمة مجهولة ، ايذانا برحلة الظلام ، والنوم ، والجنس، والاحلام . والنسوة ينزعن ثياب الليل المنقوشة والملونة ، ويرتدين ثياب النهار السوداء ، ويغطين رؤوسهن وأعناقهن بطرح خفيفة السواد .

كل شيء يحدث كما هو ، كما كان . وكل شيء كان من قبل هذه المفاجأة التي انقضت على قريتنا ، على غير موعد ، يبدو طبيعيا في اعيننا ، ومألوفا لعقولنا . هذه هي الحياة ولا حياة غيرها، الفناها

والفتنا ، بما فيها من موت ، وحياة ، وضحكات الصحة ، وانات المرض ، وابتسامات الغافلين ، وعبوس المهمومين . اما الان ، وقبل ان يحدث شيء مادي ملموس ، يمسك باليد ، ويرى بالعين ، فقد اخذت عيوننا ترى ذلك الشيء الجديد الوافد ، المثير للدهشة ، يسقط على قريتنا من حالق ، ونقع تحت وطأته في شعور بالتخلف والعار، والترقب المبهور الانفاس ، والخوف من ان نرى انفسنا بعيون جديدة . ومن ان يرانا آخر ، ذلك الآخر القادم من عالم الغيب ، الذي لم تعرفه بيننا ابدا ، سوى عقول قليلة ، من ابناء قريتنا ، الذين يقرأون الصحف . والذين تجولوا بعيون مصابة بالتراكوما وعشى الليل ، في كتب الجغرافيا ، وصفحات الأطالس ، على ادراج الفصول المدرسية بالبندر . وبدأت اعيش من الان مع هذا الجديد الوافد ، المتوقع قدومه من باريس ، ونسيت معه كل احتمالات نجاحي او فشلي في الشهادة الثانوية . فلم يعد من حديث لنا في القرية، سوى عن «حامد بن مصطفى البحيري» ، ابن قريتنا المغامر والمدهش، وصانع الأعاجيب .

كنا جالسين على مقهى الجسر ، نلعب الدومينو والطاولة والورق . تمرق بجانبنا سيارات الاتوبيس والأجرة والملاكي وعربات الحنطور ، جنوبا وشمالا ، فوق الطريق الزراعي المرصوف المشقق، المليء بالحفر والمطبات ، والظامئة الى طبقة من الزفت ، ورش المياه. وتوقف بجانبنا فجأة ، على غير انتباه ، عامل التلغراف. وقد استنفدنا من قبل كل ما كان يمكن الهمس به ، من توقعات ، وخيالات ، وأحلام، عن «حامد بن مصطفى البحيري» . نزل العامل عن دراجته. واسندها على حامل العجلة الخلفية ، ومد يدا فارغة الى بقال قريتنا الوحيد، الذي كان يلعب معنا الطاولة ، تاركا دكانته لولده اليافع ، وطلب جنيها ، من احمد بن مصطفى البحيري ، شقيق حامد بن مصطفى البحيري . سخر منه احمد ، فناوله العامل ، متحديا ، برقية كانت مطبقة في يده الاخرى :

ـ طيب . خذ يا عم احمد . تلغراف يا سيدي ، من باريس .

ـ باريس ؟!

شهق احمد ، ثم قالها ، ووثب كالمرتعب . بدا مذعورا ، وملهوفا، وفرحا . خطف البرقية بلهفة . فضها . اسرعت عيناه فوق سطورها بعجز ، على معرفته بقدر كاف من القراءة والكتابة . توقف فجأة مهددا العامل بضربه حتى الموت ، لغير سبب واضح يمكن ان نفهمه او نخمنه. وكنا نتصايح بهرج بالغ : برقية ؟ من باريس ؟ ولأحمد بن مصطفى البحيري ؟ ناولني البرقية . فاخذت اقراها بصوت مرتفع ، والكل واجم . كاننا في حضرة المأمور ، او في محراب جامع :

«امي العزيزة . اخي احمد . انا حي ارزق . تزوجت ، وانجبت ولدا وبنتا . سآتي مع زوجتي سيمون لزيارتكم ، لمدة اسبوعين فقط، بسبب اعمالي الكثيرة هنا . ارسل لكما برقيا الفي جنيه ، لبناء بيت على الجسر ، صالح لاقامة زوجتي الباريسية ، في بحر اسبوعين من تاريخه . استشيرا في ذلك مهندسا معماريا . يمكنك يا اخي ان تستلم المبلغ فورا ، من مكتب التلغراف . مشتاقٌ اليكم جميعا . وسيمون اكثر شوقا لمعرفتكم . اعتقد انكم سوف تحبونها كثيرا ، وانها سوف تحبكم بدورها ، وبخاصة اذا كان مظهركم وسلوككم حسنا معها. الى الملتقى ايها الأجنة » .

علقت باذهاننا عبارة «ارسل لكما الفي جنيه» . اخذنا نردد ذلك في عجلة . تساءل احدنا كيف يمكن ان ترسل النقود ، كالتلغراف ، برقيا ، باللاسلكي . صاح عامل التلغراف طالبا جنيها حلاوة البرقية، والمبلغ ايضا . خطف احمد البرقية من يدي ، وجرى ليعبر القنطرة الصغيرة . بدا سعيدا بفرحة لا توصف ، بأخيه ، وبالألفي جنيه . بدا أنه يريد ان يخبر أمه . صاح به عامل التلغراف طالبا حلاوته ، ولو عشرة قروش . توقف احمد فجأة ، ونظر الى جهة المدينة ، ثم الى الدراجة ، وعاد يجري صوبنا هاتفا بعامل الدراجة ، ليحمله الى المدينة ، وكان الوقت ضحى ، ليصرف الألفي جنيه . ربما قبل ان يكتشف احد اي خطأ في البرقية . احتج العامل فوعده بجنيه ، حين يصرف المبلغ ، وركب الدراجة خلفه . فابتعد به عامل التلغراف مسرعا صوب الشمال ، في اتجاه البندر . قال رجل عجوز معمر ، عجز الموت عن اختطافه مبكرا :

ـ حامد بن مصطفى ، سرق من ثلاثين سنة ، خمسة قروش ، من ابيه ، الله يرحمه ويحسن اليه . ضربه المرحوم ، وطرده من البيت ، من ثلاثين سنة . ولكن الولد جعلها جدا ، ولم يعد ابدا .

لكننا ، دون ان نتعجب لأحوال الدنيا ، ودون أن نجلس ، خطر في ذهن كل منا شيء آخر . ان نذهب . ونخبر أم حامد بالخبر . وخلت المقهى من كل الناس الا القليل ، ممن لا يعنيهم الأمر ، او ممن قلوبهم باردة . وتزاحمنا ونحن نعبر القنطرة ، مسرعين . وطوال اسبوعين ، فرضت زيارة حامد وسيمون نفسها علينا فرضا .

***

لم اكن قد رأيت لأخي وجها ، فقد ولدت بعده بعدة اعوام ، كما قالت لي امي ، وكما اكد لي عواجيز القرية . ووجدت في امي التي خرفت ، وأبي الذي مات بالاستسقاء ، عوضا عن الابن الذي ضاع ، وعن الأبناء الذين ماتوا قبله وبعده . وبين يوم وآخر كانت تأتيني من اخي العزيز برقية تقول :

«ركبنا الباخرة اليوم من ميناء طولون ، في طريقنا الى الاسكندرية، انا وزوجتي سيمون، لكي نصحب معنا سيارتنا الخاصة».

«وصلنا الاسكندرية اليوم ، ونحن في طريقنا بالسيارة الى القاهرة » .

«نحن في الطريق اليكم بالسيارة ، وسنصل تقريبا حوالى الظهر ، غدا » .

وكان المأمور قد دعاني مع العمدة ، بواسطة مخصوص ، الى البندر ، وحملنا السائق الخصوصي للمأمور ، في السيارة الحكومية الخاصة بالمأمور . وحيانا المأمور تحية لها العجب ، وخصوصا في تحيته لي . ورحنا نتحدث عما ينبغي عمله ، لاستقبال حامد وسيمون، وتوفير اقامة طيبة ومريحة لهما . وشدد عليّ المأمور ، بأنه يجب ان احقق كل وسائل الراحة والترفيه لأخي حامد ، ولزوجته الباريسية. وقد أكد عليّ المأمور ، بضرورة ان يكون للبيت الذي سيقيم فيه حامد وسيمون ، حديقة مزروعة بشجيرات الياسمين والفل والموالح، التي يمكن خلعها من جذورها ، مع ما يحيط بها من طين ، لفرسها من جديد في الحديقة ، وكأنها قد نمت فيها منذ زمن بعيد .

وللأسف ، لم انمكن من بناء البيت المطلوب لحامد وسيمون . المهندس المعماري ذكر في البداية ، ان بناء البيت لا يمكن انجازه قبل شهرين . وحين ألححنا عليه ، وتوسلت اليه ، طلب ، كمقاولة عن البيت ، مبلغا ضخما من المال ، بدا لي ، في تقديري ، مبالغا فيه جدا ، وكان اكثر مما ارسله حامد اليّ . ولم يكن احد في الدراويش قد لجأ من قبل ، الى مهندس معماري ، لبناء بيته . لذلك رأيت انا والعمدة ، وأهل الحل والربط في الدراويش ، الاستغناء عن جهود المهندس ، وعلمه ايضا ، الذي سخر منه البناؤون القدامى في الدراويش ، وبناء البيت بجهودنا . لكن العمال الذين حاولنا الاستعانة بهم ، طلبوا أجورا مضاعفة ، مع انهم من ابناء الدراويش. ربما كان ذلك منهم استغلالا لفرصة للكسب لا تعوض ، وبخاصة امام ضيق الوقت ، وبعد ان اشتريت ارضا أصر صاحبها على ضرورة بيعها بخمسمائة جنيه ، ولمساحة لا تزيد على خمسمائة متر .

ركبني الهم ، وبت لا اعرف النوم ، ولا اعرف لي ليلا ، من نهار، حتى استقر الرأي بحضور العمدة ، ومشايخ الدراويش ، وشيخ الخفراء ، والخفراء ، والأعيان ، ومعلمي المدرسة الابتدائية ، وطلبة المدرسة الثانوية في البندر ، على الاكتفاء ببيت الأسرة بعد اصلاحه. وابلغنا قرارنا للمأمور حتى يرضى ولا يغضب . وفعلا قمت بطلاء

البيت بالمصيص والزيت ، وجددت ابوابه ونوافذه ، وزودته بالشيش والزجاج ، وغطيت ارضه بالبلاط والخشب ، وزودت حمامه بدش ، ودورة مياه افرنجية ، وثلاجة صغيرة ، ووضعت خزانا فوق سطح البيت يملأ من مياه الطلمبة ، وتمتد منه ماسورة الى الحمام ، ودورة المياه ، وحوض غسيل الوجه واليدين . وقام طلبة المدرسة الثانوية في البندر ، من ابناء الدراويش ، بتعليق بعض لوحات على جدران البيت ، من رسومهم ، بعد ان أطرتها بأطر مذهبة منقوشة . وسددت منور السقف بهرم من الزجاج المسنفر ، يمكن فتح نوافذ فيه . ودفعت اكثر من مسمار وعلاقة بغرف البيت وصالته ، من اجل الكلوبات ومصابيح الجاز نمرة (٣٠) . وذلك بالاضافة الى الستائر ، والمقاعد، وترابيزة السفرة ، والمفارش ، والملاءات والبياضات ، وفوط الوجه واليدين .

أجهدني ذلك كله . وأفلسني . وفشلت في أن استبقي لنفسي شيئا يذكر من المبلغ ، أمام كثرة المطالب ، وفي مواجهة الأوصياء ، وأصحاب العيون المفتوحة الذين اخذوا يحاسبونني بالمليم ، بل ويتهمونني ، في وجهي ، بالسرقة والتحايل ، او بالبخل والتقصير . صحيح أنني استفدت من هذا المبلغ لدكانتي ، كما استفدت لبيتي . لكن ذلك كان ضمن المطالب والمظاهر التي لا بد منها أمام سيمون . فقد كان ولا بد أن تظهر دكانتي لسيمون بالمظهر اللائق بها ، وبأسرة البحيري . طليت جدران الدكانة ورفوفها بالزيت ، وجددت منضدتها الأمامية ، وزجاج أدراجها ، وزخرفت الواجهة بنقوش عربية . وهذه كلها مسائل لا بد منها . لكن المشكلة التي لم أستطع أن أتغلب عليها، دائما ، هي مشكلة الذباب في النهار ، والناموس في الليل . فكلما قتلت منه بالبخاخة أعدادا جاءت بعد لحظات أعداد أخرى . حتى وصلت الى حد بالغ من السخط والضيق ، بهذه الزيارة ، وبحامد وسيمون ، اللذين قلبا حياتنا ، بل قلبا حياة الدراويش كلها رأسا على رجلين . لكنني ، والحق يقال، كنت فخورا أمام اهل الدراويش بأخي ، ومعتزا برفع رأسي بينهم اكثر من العمدة نفسه ، ومعه بطانته كلها . وبيني وبين نفسي ، ولا أكتم ذلك ، أشعر بغيرة من حامد ، وأقارن بين ماله ومالي ، وحاله وحالي ، وزوجته التي لم أرها بعد وزوجتي . حتى أنني رأيت في الحلم ، ذات ليلة ، انني أقتل حامد بسعادة ، فبكيت حين استيقظت من نومي محتقرا نفسي ، ساخطا على مشاعر الشر الخبيثة في قلبي . وتذكرت ما حكاه لنا امام المسجد، في لحظة من لحظات تجليه القليلة ، عن قابيل وهابيل . وخفت أن أصبح يوما ذلك الرجل الذي قتل أخاه بدافع الغيرة .

***

اكد علي مأمور البندر ، بوجوب ظهور الدراويش بالمظهر اللائق،امام حامد ، وبخاصة أمام زوجته سيمون الفرنسية . حتى نرفع رأس حامد أمام زوجته ، ونرفع رأس الدراويش والناحية ، بل ومصر كلها ، أمام الخواجات جميعا ، ممثلين في شخص الست سيمون . وقد وعدت السيد المأمور ، وأكدت له ، بأنني سأولي هذا الموضوع كل عنايتي. وأعلنت له انني سأدعو مشايخ الدراويش وأعيانها الى اجتماع عاجل، بخصوص ذلك . ومنذ عودتي من عند المأمور الى الدراويش ، والبلدة كلها في حالة طوارىء واستعدادات لاستقبال حامد بن مصطفى البحيري ، الذي فتح الله عليه في بلاد الروم ، وزوجته سيمون القادمة معه من بلاد الفرنسيس، والفرنجة ، والأعاجم.

قلت للجميع انه لا بد ان تظهر الدراويش بالمظهر اللائق بها وبالديار المصرية . ووافقوني على ذلك . وأخذنا ، طوال اسبوعين في تهذيب حشائش القنوات ، ونرميم جسورها (فقد ترغب الست سيمون في أن تتمشى عليها في العصاري) ، وردمنا البرك والمستنقعات . ومن حسن الحظ أنه لم تكن لدينا زراعات أرز قريبة من الدراويش ، فتردم الشوارع والبيوت بالناموس . وعبدنا طرقات الدراويش ، وردمنا حفرها بطبقة جديدة من الردم الذي اقتطعناه من جسر النهر ، الملاصق للأراضي المزروعة . واتفقنا على عدد كبير من الكلوبات مع أحد محلات البندر ، لنضعها وقت اللزوم على نواصي الشوارع الرئيسية ، طيلة الليالي التي ستقيمها سيمون في الدراويش ، لكي تبدو الدراويش لسيمون ، وكأنها مضاءة في كل الليالي من سنوات بعيدة . واتفقنا على ضرورة فرش الطرقات الرئيسية في الدراويش بالرمال المجلوبة على الجمال والحمير ، بعد نقلها بالمراكب المؤجرة طبعا ، من الصحراء المجاورة للشقة الاخرى من النهر . وحجزنا بالفعل لحامد وسيمون عشة بمصيف الناحية القريب ، لتقيم فيها سيمون يوما او أكثر ، حسب رغبتها ، اذا شاءت ذلك . وأصدرت امرا ، اعلنه للكافة منادي الدراويش ، بمنع رمي مياه الغسيل والاستحمام في الحارات والأزقة ، وبأن من يخالف هذا الأمر فسوف يتعرض لعقاب شديد من العمدة ومأمور البندر ، وعلى الحاضر أن يعلم الغائب . ومن باب الاحتياط ، أمرت الخفراء بضرورة ابعادهم مع الأهالي لروث البهائم والحمير ، من شوارع الدراويش ، في الصباح وفي المساء ، وبضرورة مرافبتهم لأولاد الدراويش حتى لا يتبولوا بالشوارع ، ووراء البيوت .

أجهدنا أنفسنا طوال اسبوعين ، في تنفيذ ما اتفقنا عليه ، ومراقبة ما تم من اصلاحات ونظافة . وفي الليالي العديدة السابقة لحضورهما ، كنا نجلس في دوار العمودية ، نتحدث عما انتهينا منه، وعما يجب علينا القيام به . ولم تخل احاديثنا من حكايات مختلفة عن بلاد سيمون الفرنساوية . وكان بعض الحضور من متعلمي الدراويش، فتذكروا لنا الحروب القديمة التي كانت بيننا وبين الفرنسيين ، منذ حوالي مائة وخمسين سنة . وبين ما تذكرناه ، وهذا ما أكده لي جدي ، وحدثتني عنه جدتي ، رحمة الله عليهما ، أن الفرنسيس قد أقاموا في الدراويش سنين ، وعاشروا نساءها ، والعياذ بالله في غير حلال . وبعضهم أقام في بلادنا ، وأسلم ، وتزوج من نسائنا ، ومارس التجارة او فلاحة الارض . واكتشفنا ، نقلا عن المسنين ، أهل الخير والبركة ، نقلا عن الأجداد الراحلين ، أن قريتنا مات فيها من أبناء الدراوش والبلدان المجاورة ، وبيد قوم سيمون ، سبعة عشر ألفا. حزنا لذلك أشد الحزن ، وغضبنا له أشد الغضب ، لكننا قررنا ، والفضل راجع لامام المسجد أن ذلك شيء قد مات ، وان الثأر من قوم سيمون يسقط بمرور سبعة أجيال . واكتشفنا أيضا ، ونحن نضحك ، السر في هذا البياض الشاهق ، في وجوه بناتنا ونسائنا ، والسر في كثرة العيون الملونة بين أولادنا في الدراويش ، وفي النواحي المحيطة بنا ، من فارسكور ، حتى عزبة البرج ومن بور سعيد حتى الاسكندرية .

وكان في تقديري ، وتقدير الآخرين ، الذي لم يفصح عنه احد، أن حامد الآن واسع الغنى، وفير الثراء ، وهو لا بد معوض الدراويش، وهي موطنه الأصلي ومسقط رأسه ، ومن أجل زوجته ، على الأقل ، ان لم يكن من قبيل الوفاء ، عن كل ما غرمته الدراويش من اجل الاحتفاء به ، ورفع رأسه ، ورأس الدراويش ، امام الفرنجة ، الحاضر منهم والغائب . وهو أمر لا بد أن تتحدث به سيمون ، عندما تعود الى بلادها سعيدة وممتنة ، تحمل معها أطيب الذكريات ، لقريتنا البسيطة الجميلة ، الجالسة كالعروس قريبا من جسر النهر .

***

جاء اليوم المشهود . ازينت ، من الصباح الباكر ، نسوة القرية، وزين معهن الأولاد من البنين والبنات ، بخير ما لديهم من ثياب . بدا الأطفال والصبية ، وكأنهم في يوم عيد ، دونه كل الأعياد . الملابس قديمة حقا ، ولكنها كانت مع الصباح نظيفة ، لا يخلو بعضها من رفع خيطت بغير دقة أو احكام . كان أكثرهم بغير أحذية ، ولكنهم حرصوا على غسل أقدامهم وتجفيفها ، قبل الخروج من البيوت ، بأيدي الأمهات والأخوات . الرجال ، وبخاصة الأقارب منهم ، والمعتزون بمظهرهم ،

والاعيان الميسورون ، ارتدوا ملابس نظيفة ، بعضها كوي حديثا بمكواة قدم في المدينة . النسوة ، وبخاصة المتزوجات منهن ، واللاتي يلفن الثلاثين ، ظللن يلبسن السواد . ويدثرن رؤوسهن بالطرح، برغم شدة حرارة الجو في هذا اليوم . لم يخل الأمر من عدم اكتراث ، من الكثيرين ، من بعض رجال القرية ونسائها . أخذوا يمارسون أعمالهم اليومية المعتادة ، في البيوت والطرقات والمزارع ، فليس لهم ، كما اعتقد ، في العير ولا في النفير . غالبا لم يكونوا من الأقارب ولا من الاعيان . كانوا يكدحون على معاشهم ، كالعادة ، يوما بعد يوم .

ومع الضحى ، بدت الصورة الجميلة للقرية تهتز . الجالسون على المقهى أضاءوا المظهر الطيب لثيابهم وأحذيتهم بالاهمال ، والعرق، والحر . والأطفال والصبية اخذوا يمارسون العابهم ، بعد طول تحفظ وانتظار ، لا الفة لهم به ، فاتسخت الملابس والأقدام والأحذية . والشوارع ، وبخاصة تلك المؤدية الى بيت احمد بن مصطفى البحيري، اختلط أديمها المفطى بالرمال ، بالتراب ، من حركة أقدام الكبار والصغار ، ومن روث البهائم والحمير ، وعجلات عربات الكارو والجاز. وحركة الذباب وطنينه تزايدت مع الحر، كلما اقتربت ساعة الظهيرة، وبالذات في الأماكن الظليلة ، للأشجار والجدران .

قرب الساعة الموعودة ، كان الكثيرون قد توافدوا الى الطريق الزراعي المرصوف . امتلأت مقاعد المقهى . وظل الكثيرون يستظلون بالشجيرات القليلة ، وبالشماسي ، وببعضهم البعض وبسور الغاب الوطيء الذي يحمي الارض المزروعة المجاورة من حركة السيارات والمرور . وحين طال الانتظار جلسوا على الارض متربعين ، او مقعين على أقدامهم . وامتلأت بالنسوة أسطح البيوت القريبة ، المطلة على الرجال ، من الضفة الاخرى للقناة الصغيرة ، بين جالسات وواقفات، ومنطرحات فوق أكوام القش والحطب ، على بطونهن ، وقد جمعن أطراف الطرح على رؤوسهن ، اتقاء لحرارة الشمس ، ووهجها الحاد. وكان الخفراء متناثرين هنا وهناك ، على ضفتي القناة ، يحجزون الاطفال وراء القنطرة ، في مواجهتنا . البعض ظل صامتا ، لكن طنين الأحاديث ، والأحلام الهامسة ، كان يزيد من الشعور بحرارة الشمس المتوهجة ، في سماء طباشيرية صافية . وكانت العيون مشدودة غالبا صوب الجنوب ، حيث ستقبل سيارة حامد البحيري الباريسية، وتظهر فجاة ، في لحظة باهرة ، لا تنسى ، مارقة من المنعطف عند نقطة مرور «العادلية» . وكان المأمور ، مع ضباط البندر ، والعمدة ، وأعيان القرية ، ومعهم أعيان من البندر نفسه ، ينتظرون ، هناك ، مقدم سيمون وحامد البحيري . وعلى طول المسافة بين القنطرة ونقطة المرور ، بل وبعدهما بقليل ، وقف ما يزيد عن مائة عسكري ، يحلمون بالنفحة الكريمة التي سيهبها لهم حامد البحيري .

وأخيرا .. جاءت اللحظة التي لا تنسى . لمع جسم السيارة ، وكان أحمر اللون ، عبر ضوء الظهيرة الباهر . وأوراق الاشجار المظلة عند نقطة المرور ، وهي تتوقف فجاة . وجرى الكل ، الرجال والأطفال، نحو السيارة . ونسي عسكر البندر والخفراء واجبهم ، فعدوا بدورهم نحو السيارة الحمراء . حتى الذين كانوا يعملون في الحقول ، وفي البيوت ، أسرعوا ، بدافع الفضول ، تاركين وراءهم الفئوس ، والمواشي ، والأطباق . علت صيحات الكل وسط زغاريد النسوة ، وصريخ الاولاد : حامد يا اولاد . حامد والفرنساوية . لو كان الملك نفسه هو القادم ، لما كان المشهد بهذه الصورة . ثار الغبار طائرا مع اندفاعة الناس ، ثم ارتد مع عودتهم البطيئة ، وهم يرتدون عائدين مع السيارة ، ملتفين بها ، ومبطئين من حركتها . وتوقفت السيارات العامة والخاصة ، المقبلة على الطريق من ناحية البندر ، امام هذا الزحام . وراحت أبواقها تزعق محتجة ، ثم راحت تصرخ في ايقاعات تحية وترحيب ، عندما عرف السائقون جلية الخبر من جرسون المقهى. وفزعت الطيور المختبئة من الحر بين الأغصان من الضجة ، فحومت فوق الرؤوس مقتربة ومبتعدة . وبرغم بطء السيارة ، كان أعيان القرية والبندر يجرون خلف الموكب وحوله ، مع عسكر البندر ، وسائر الناس وأبواق السيارتين اللتين تحملان المأمور والضباط ، تزعق محذرة الناس . والسيارة الحمراء المكشوفة ، الفارهة طولا وعرضا ، في المقدمة ، تحيط بها عدة موتسيكلات ، خاصة بالمواكب في مثل هذه المناسبة .

كان طول الانتظار قد ارهقني ، وما أراه قد شدهني ، فظللت واقفا عند القنطرة ، بالرغم من تكليفي ، لمعرفتي بلغة سيمون، بالتواجد قريبا منها ، ومن العمدة ، ومن احمد بن مصطفى البحيري ، حين يكونان معها . اقتربت السيارة من القنطرة ، والناس يتدافعون ويتزاحمون ، ورأيت فجاة امام عيني عالمين : وجوه الناس جميعا ، ووجه سيمون وحتى وجه حامد الذي تغيرت حتما بشرته وهيئته كثيرا ، حتى لا تستطيع أن تدعي انه من سلالة الدراويش ، مع انه كان ذات يوم ، واحدا من صبيتها الحفاة ، المرقعي الثياب ، الدائمي الشكوى من المغص ، والبول الأحمر ، والصداع ، والدوار ، وآلام العينين . وكان يمكن ان يظل كذلك ، اذا قدر له ان يعيش حيا في الدراويش ، حتى الآن .

كان يمكن للسيارة الحمراء العريضة ان تمر فوق القنطرة ، لكنه كان من المحال ان تستطيع السير في الشارع الرئيسي ، لضيقه ، بالنسبة لها . ويبدو ان حامد أحس بهذه المشكلة ، لأنه دار بسيارته منعطفا يمنة ، والعسكر والخفراء يضربون الناس ، وتوقف بها في الفراغ الذي يبدو انه لم ينسه بعد ، والكائن بين المقهى ، وغرفة الصفيح التي ترقد بداخلها طاحونة القرية الحجرية . نزل هو ، وظلت هي جالسة ، واستدار حامد ليفتح لها الباب ، لكن المأمور كان أسرع منه . ففتح لها الباب ، وانحنى وقال لها بالفرنسية :

ـ تفضلي .

نزلت سيمون . هذه هي سيمون ، قادمة لتوها من عاصمة النور ، من بلد البوليفار ، والسوربون ، والحي اللاتيني ، وغابة بولونيا ، وميدان الكونكورد ، وميدان الشانزليزيه . سار أمامها المأمور ، مفسحا لها الطريق ، وتبعته مع حامد ، يليهما الضباط ، فالعمدة والأعيان . شديد الأناقة هو حامد ، تطفر الصحة من اهابه وبدانته ، على طوله الفارع ، واضحة . اما هي ، سيمون ، فليست جذابة ، ولا جميلة ، ولا قبيحة . جلدها أحمر ، لوحته الشمس في الطريق بسرعة . عودها على نحافته بض وممتلىء . فستانها الأزرق الريشي مع بشرتها ، فاتنان ، وساحران معا . خطوها عزف ، وعيناها الزرقاوان تبرقان حيوية . عديدات هن في قريتنا أجمل كثيرا منها، وأكثر جاذبية . لكن هذه فيها روح ، وشخصية متكبرة ، وعزيزة ، على ما يبدو فيها من خفة ومرح وبساطة . وشعرت حيالها بالأسى لنسائنا جميعا .

عبرنا القنطرة ، وراء السادة ، لنرى مزيدا مما يحدث ويجري ، مزيدا من المشهد النادر ، لفرنسية في الدراويش . سيمون ! آه.. سيمون !! كم هو جميل اسمها وساحر ، جمال عينيها ، وسحر الكاميرا التي تتدلى من كتفها ، عند خصرها النحيل .

٢ ـ دوامات .. في الدراويش :

الفرحة بالعودة الى الوطن ، تبددت كما يتبدد الحلم ، متماوجا مع صدمة الصحوة ، بدا العالم قريبا ، بعض الشيء ، من العالم الذي جئت منه ، في الاسكندرية ، وافل من ذلك في القاهرة ، العمائر والطرقات المرصوفة ، كتلك التي تركتها ورائي في باريس ، ونيس ، ودوفيل . لكن عجلة الحياة اليومية تختلف كثيرا ، مثل اختلاف الناس : من خلفتهم ورائي ، ومن أراهم أمامي . بدت اكثر الرؤوس عارية ، قلت الطرابيش والعمائم ، والثياب البلدية ، والثياب الافرنجية ، وانتشرت البدل ، والرؤوس الممشطة الشعور . قريبو

الشبه من قوم سيمون ، برغم وجوههم السمراء ، وعيونهم العسلية. لكن ، الروح ، والحضارة !! النظافة ، والطباع !! أزعجني الموظفون ، والحمالون ، والكتبة والباعة ، بمعاملاتهم معي ، ومع الآخرين . عزوت ذلك الى الحر ، والعرق ، والغبار الذي تسبح ذراته ، وتكسو كل شيء تلمسه الأصابع ، والذباب . لكن قلبي ، بعد كل تبرير ، لم يكن مقتنعا ، أمام روائح الأفواه ، وكلمات السباب ، والرقة المفقودة، وغيبة السلوك المهذب .٩٠

كنت أنظر دائما الى سيمون ، لأرى على ملامح وجهها ، وفي التماعة عينيها ، ردود الفعل لبلادي ، وأهل بلادي . لكن فرحها بالرحلة ، والاكتشاف ، كان طاغيا ، يمنحها قدرة على الاحتمال الأبله. أدرك ذلك ، برغم توقي الشديد ، الطائر ، الى رؤية اهلي ، وبلدي، والقناة ، والقنطرة ، وأشجار النخيل ، والجميزة العجوز . ترى هل ما تزال باقية؟ ما زالت الأشياء تحمل اسماءها في نفسي ، وتتوافد صورها علي ، عامة ومجملة ، ضبابية ومهتزة ، من أغوار ذكريات بعيدة ، طالما أرقتني ، وعذبتني ، على ظهور البواخر ، والقطارات ، والمناجم ، ومفاسل المطاعم ، ثم في متاجري الأنيقة ، وفندقي الشهير في باريس .

في الطريق ، افتقدت الشعور بالغابة ، وبالمزارع الأوربية ، والخضرة البكر المتعددة الدرجات . والأرض تطوى تحت عجلات السيارة المتارجحة بالاندفاع والطبات ، والغبار يثور محوما متراجعا وراءنا تاركا بقاياه على العرق اللزج ، ورائحته في الأنف . والاشجار القميئة المصفرة الخضرة ، والشوكية ، تجري على الجانبين مع الترعة، وأعمدة التليفون ، والمزارع المنبسطة الممتدة على المدى . وأزعجني الفلاحون ، وهم ما يزالون يعملون بأيديهم ، جنبا الى جنب ، مع الحمير والجواميس والبقر . وأزعجني مشهد القرى الطينية الواطئة، المتلاحقة ، والوجوه الذابلة السمراء ، المصفرة ، الممصوصة ، معلنة عن الانيميا ، والدوسنتاريا ، ونقص الهيموجلوبين . وقلت لنفسي :

« هذا هو الوطن »

ومن العجيب ، ان سيمون كانت مسرورة بما ترى ، بالشمس الساطعة المحرقة ، وبالخضرة الممتدة ، وبالحياة البدائية ، كانت تصيح بين لحظة وأخرى :

ـ أوه .. هامد .. انظر . هذه الأرض المنبسطة .. والماء الكثير .. أتظل بلادكم ابدا غارقة في الشمس ، حتى في الشتاء ؟ أليس عندكم جليد ؟

لكنها ايضا قالت :

ـ لكن ، اين الغابات ؟ لماذا يبدو المرض على وجوه الناس ؟ لماذا يزرع الناس بدون ماكينات ؟ لماذا يمشي الأطفال حفاة ؟

كانت اسئلتها تقتلني . وكنت اقول لنفسي :

((هذه هي بلادي . وهؤلاء هم قومي))

وكانت ترى الحرج على وجهي . عندئذ كانت تقول لي ملاطفة ، بادب قومها المعهود :

ـ بردون شيري .

ثم تعود لتسأل من جديد ، أوتلتقط صورة ، وددت لو لم تأخذها قط ، لكل ما يخجلني ، ولا يسرني ، ولن يشرفني ايضا في باريس. لكن ، هذه هي الحقيقة ، وذلك هو الواقع ، ولا حيلة لي فيه .

توقفنا مرارا عند نقط المرور ، وساعدتني كثيرا لغتي ، والأوراق التي أحملها معي من القاهرة ، برغم لكنتي الأجنبية ، وجنسيتي الفرنسية . وكنت مضطرا دائما لشرح الغاية من سفري داخل البلاد. وابدت سيمون ، ونحن نمرق على الطريق أمام قرية «كفرشكر» رغبتها في أن تتوقف ، لنشرب شيئا في مقهى متواضع ، وتشتري فاكهة ناكلها ونحن جلوس . فتراجعت بالسيارة بضعة أمتار ، ووقفنا . وغسلت سيمون وجهها وساعديها وشربنا زجاجتين من المياه الغازية، مثلجتين بعض الشيء . وأكلنا فاكهة غسلها صاحب المقهى بنفسه . وتحلق حولنا الكثيرون من القرويين ونسائهم واطفالهم ، كانوا قادمون لتونا من كوكب آخر . ثم واصلنا السفر من جديد . وخشيت عليها في الطريق من ان تصاب بمغص ، بسبب الخوخ والمشمش الذي اكلته في المقهى ، مغسولا بمياه أعلم أنها من الترعة . بل قد أصاب أنا الآخر معها ، ان لم يكن بمغص فبالدوسنتاريا في الغداة . انني لم أنس بعد السنوات العشر التي عشتها هنا ، وما كان فيها من آلام ، عرفت أسبابها في باريس ، وكم عانيت منها سنوات طويلة .

حين توقفنا عند نقطة مرور ((العادلية)) ورأينا الشرطة ، ظننت شرا ، ثم ضقت باستقبالهم وحفاوتهم . ربما كان الخجل منهم ، في مواجهة سيمون ، ومن الأعيان ، والفقراء ، والأطفال ، هو سبب هذا الضيق الذي أخفيته في قلبي ، وراء ابتسامة عريضة ، وبخاصة حين رأيت السعادة في وجه سيمون . هذا هو أخي الذي طالما وددت أن أعانقه ، وتلك هي أمي العجوز ضامرة ، انكمش منها ، مع السنين ، العرض والطول . صافحتهما ، وتركتهما يقبلاني . وعانقت أمي سيمون وقبلتها على الخدين . وتحسست وسط الكل شعرها ، ولحم كتفيها، فجفلت سيمون . ثم ارسلت امي زغرودة مدوية، ومشروخة، ومبحوحة. ولم يوقفها سوى السعال المفاجيء .

هذه هي قريتي ((الدراويش)) ببيوتها الطينية الواطئة . شوارعها الضيقة ، كأنما تخشى أبدا من غزو متوقع . السواد الذي يكسو الوجوه ، ويلون ملابس النسوة . والارض الترابية الجافة السبخة، وأكوام القش فوق أسطح البيوت . هذا هو الحلم الذي عشته ، وشدني ، وجئت من أجله . برغم كل شيء ، فهو هنا ، في قلبي ، جارف ، وعارم ، اشعر معه ، مع الغيظ والقرف ، بالحب والإراحة. فكرت : ترى ، هل سيمون سعيدة حقا بما ترى ، وتسمع ، وتشم ؟ سألتها ، فقالت وهي تهز رأسها ، وعيناها تلتمعان برضا بالغ :

ـ بوكو .

لكنني كنت أعلم ، انه في ذات لحظة ، سوف تذهب السكرة ، وتبقى الفكرة . وتضايقت للغاية حين ذكر لي اخي احمد ، قبل ان اوقف السيارة بجانب المقهى ، انه لم يستطع ان يبني لنا بيتا على الطريق الزراعي . واستسلمت للأمر الواقع ، حين أكد لي ، ونحن نعبر القنطرة ، انه قد أعد بيتنا القديم (الذي اذكر ظلامه ، وأنه مدفون في الحارة ، من ثلاث جهات ، بين البيوت) ، بصورة ترضي سيمون . ومنحني هياج الناس ، من حولنا ، شعورا بأنني غاز مظفر، عائد لتوه من حرب هائلة ، بهذه السيارة ، وبسيمون سليلة الخواجات ، كابرا بعد كابر . وودت لو قدم لها أحد باقة من الورد، او حتى عودا اخضر من أرضنا الطيبة .

***

خرجت سيمون من الحمام ، محلولة الشعر ، مبتلة مثل العروس ، في أول صباح لها ، وذهبت الى غرفتي التي أخليتها لها هي وحامد ، وأقمت ، قبل ايام ، مع زوجتي زينب ، في غرفة أمي. ودخل حامد الحمام ، ثم غادره ، ولحق بسيمون . وحين فتحا الباب، كانا بثياب الخروج ، فعجبت لحالهما لأنهما لن يغادرا البيت الآن. كانت سيمون ترتدي فستانا قصيرا رماديا ، وكان حامد ببدلة زرقاء، وكرافتة معقودة الفيونكة ، مثل جرسون مقهى النهر في البندر . وكنا قد وضعنا أطباق غداء فاخر على المنضدة . كانت كمية الطعام هائلة ، تكفي الحارة بأسرها ، مما جعل سيمون تصرخ في فزع ودهشة، ثم استسلمت ، وهي تتحدث بلغة بلادها عن الكرم الشرقي ، وما فيه من اسراف وخرق . أي والله هكذا قال لنا حامد ما قالته بلسانها، وعجبت من امرها على المائدة : الشوربة اولا ، ثم بقية الطعام واحدا بعد الآخر . هكذا فرضت سيمون النظام علينا ، وكان حامد يترجم لنا ما تريده ، وينقل الينا ملاحظاتها اولا بأول . وعهدي بأن يسير الانسان في ماكله ومشربه حسب البلد الذي يذهب اليه .

جهدت لاضحك سيمون على الغداء . وكان حامد ينقل لها بادب

التتمة على الصفحة ٧٠

اصوات

تتمة المنشور على الصفحة ١٢

واهتمام ما اقول ، فلا تزيد على ان تبتسم ، وتقول :

– برافـو ..

خجلت وانا على المائدة من مظهري امام مظهر حامد . ومن مظهر زينب امام مظهر سيمون . اما امي ، فلندعها على جانب وحدها. جهد خياط الدراويش في تفصيل ثوب كشميري لي، جعلني أتصبب عرقا، مع الحر ، وسخونة الشوربة . وبذلت الست «رفرف» كل ما في وسعها لتبدو زوجتي وامي في ثياب محبوكة . ولكن ، متى علت العين على الحاجب . نسيت مرارا ، وشربت الشوربة ، والماء المغلي المبرد، بصوت مسموع ، برغم انني انا الذي نبهت على زوجتي وامي محذرا من ان تفعل احداهما ذلك . وقعت امي في نفس الخطأ باستمرار. ولم تكف زينب التي لم تخطىء ابدا ، عن النظر الي ، والى امي مؤنبة. كانت تراقب ما تفعله سيمون على المائدة وتفعل مثلها ، ان رفعت الملعقة وان وضعتها ، حتى في درجة فتحة فمها لتدخل الطعام فيه . وكان منظرها مضحكا ، وهي تحاول ان تأكل مثلها بالسكين . وفكرت ان الانسان منا ، لا يمكن ان يغير عاداته في يوم وليلة .

وحدث أن مدت سيمون يدها ، لتغرس السكين في فخذ الرومية ، فبان ابطها مشعرا ، اصفر ، طويلا . شعرت بالقرف . ولاحظت زوجتي ما رأيت ، فابتسمت في تشف ، ونظرت الي ساخرة، فزغرت لها محذرا ، حتى لا يلحظ حامد حديث عيوننا . فكرت ان الحلو دائما لا تكتمل حلاوته . وتحيرت بيني وبين نفسي ، كيف لا تنظف سيمون جسدها ، وهي المتمدنة الراقية ، وهي تعلم أنها ذاهبة لزيارة أهل زوجها ، في بلد غريب عنها !!

وكان حامد وسيمون يأكلان بالحكمة . ويتحدثان همسا ، تقريبا. ولذلك كانت امي ، الثقيلة السمع ، تمد اذنها نحوي . وتسألني بصوت مرتفع عما يقولانه . فيحاول حامد رفع صوته ، ويجيبها بحنو ورأفة، بكلمات متقطعة ، متعثرة ، وكأنه يحاول البحث عن كلمات نسيها في غربته ، خلال ثلاثين سنة ، ويستفسر مني لأذكره بها . بل كان احيانا يحشد كلمة فرنساوية وسط كلامه ، فكانت امي تفتح فمها مرارا من الدهشة ، وزينب تحاول أن تكتم ضحكها ، بينما ترنو اليهما سيمون في عجب من أمرهما .

فرغنا من الطعام . فذهبنا أنا وحامد الى غرفة الصالون . وأصرت سيمون على التخلف عنا ، لمساعدة زينب ، وأمي ، والخادمة التي استأجرناها ، مؤقتا ، للمساعدة ، وللظهور بمظهر طيب أمام سيمون ، اخرج حامد كراسة صغيرة من جيبه . سألني حامد عن النقود المتبقية معي ، فذكرت له الابواب التي أنفقت فيها نقوده . ومن عجب أنه لم يتأثر لنفادها ، وأعطاني مائة جنيه للانفاق منها مدة اقامته . وتبسط معي في الحديث . سألني عن أحوالي وعملي ، وكيف عاش ابونا ومات . ثم راح يسألني عن الأقارب أسرة أسرة ، وواحدا واحدا . ومن ولد ، ومن تزوج ، ومن انجب ، ومن مات ، ومن رحل عن القرية ، ومن بقي . كان حامد يسألني ، ويدون كلاما يكتبه من اليسار الى اليمين ، ويضع امامه ارقاما ، خجلت أن امد بصري لرؤيتها . ثم اخرج حافظته مرة ثانية ، ووضعها أمامه ، وأخرج سيجارا بني اللون ، وكان طويلا وضخما ، وقدمه الي ، وأشعله لي، ووضع آخر في فمه وأشعله لنفسه ، وراح يعد لي نقودا : هذه أعطها لفلان ، وهذه لفلانة ، وهذه لفلان . وحدثت نفسي وأنا أتأمل السيجار والمال ، أنه صاح ، لا تغيب عنه شاردة ولا واردة . ولا يفوته فعل مكرمة. لم ينس ان يصل رحمه ، لكنني ، والحق يقال ، اعتبرته مجنونا ، لانه يبدد كل هذا المال ، ويثير من حولنا الحسد ، وعشر هذا المبلغ يكفي ، لملء العيون التي لا يمكن ان يملأها سوى التراب . ويمكنني ، انا اخاه وشقيقه ، أن اتاجر بهذا المال ، وحده ، الذي اعطاه لي ، في السماد ، والسباخ ، والأرز ، والقمح ، والجاز ، والتقاوى ، والقطن ، والقماش ، وكل شيء ، كل شيء . وقررت بيني وبين نفسي ، ان انفذ كلامه بطريقتي ، فاذا كان هو لا يعرف، فانا اعرف ، وأنا وأمه وأولادي أقرب الرحم اليه ، وأولى بأن نلملم من حوله هذه «البعزقة» للنعمة .

ونحن جالسان معا ، جاء اولادي من عند خالتهم : الصبيان الثلاثة ، والبنتان ، قدمتهم اليه ، وسلموا عليه ، وقبلوه ، وقبلهم وجلسوا بأدب ، فنفح كلا منهم خمسة جنيهات ، وراح يتحدث معهم. وحدثني غاضبا عن ضرورة ذهاب البنتين الى مدرسة البندر ، فاظهرت له الموافقة على رأيه . وطلب مني ان اذكره بخطاب ارسله الى باريس ، عندما يكون احدهم ، ولدا او بنتا على وشك الزواج . وحث ولدي الأكبر على الحصول على الشهادة الثانوية ، ليرسل في طلبه، ويتم له تعليمه العالي في باريس . شعرت نحوه بامتنان شديد ، الى درجة دمعت معها عيناي ، وشكرته داعيا له بكثرة الخير . فأوقفني باشارة من كفه ، قائلا ، ان هذا هو واجبه ، وانني اخوه . وجاءت امي وزينب وسيمون ، وصاحت سيمون حين رأت اولادي ، وقبلتهم. وحاولت عبثا ان تتحدث معهم ، لكنهم لم يفهموا عنها . وأحسست ان جلستهم قد طالت ، فأشرت اليهم بنظرة لينصرفوا. ولمحت سيمون نظرتي ، وبدا لي انها تحتج على ما افعل ، لكن الاولاد نفذوا ما اقوله، وسلموا بأدب ، وانصرفوا ، ليذهبوا الى بيت خالتهم . واستأذنت لحظة ، وخرجت وراءهم ، وأخذت منهم ما اخذوه . فعلت ذلك حتى لا يفقدوا كل هذا المال ، او تنام عليه زينب بأي حجة . ونبهت عليهم الا يذكروا لخالتهم شيئا عن هذه النقود . ثم عدت الى الصالون .

طالت جلستنا قليلا ، ولاحظت ان سيمون تداعب حامد . وبدا لي انها تريده الان . وكانت امي ترقب ، وتضحك . وزينب تختلس اليهما النظر . وخشيت أن ترتكب احداهما خطأ ما ، فنهضت مستأذنا ، وأخذت معي أمي وزينب . وصحب حامد زوجته الى غرفتهما ليستريحا قليلا . وكنت أنا ايضا اريد زينب ، بعد هذه الاكلة الدسمة ،غافلا عن اميالتي تقيم معنا في الغرفةمنذ اسبوعين. لكن، ربما استطعنا ان نفريها بالصعود الى السطح ، لتطعم الدجاج وترعاه ، الى ان يأتي وقت المغرب . ولم يخطر لي ، وأنا في قمة النشوة مع زينب ، انني سأشعر فيها بسيمون بين يدي ، أهصرها هصرا . ولاحظت ان زينب كانت أيضا ، مقبلة علي بصورة لم أرها منها ، منذ سنوات كثيرة .

***

كنت قد اعددت ليلة لا تنسى ، فرشنا لها السجاجيد في الشرفة والمندرة ، وقاعة الضيافة ، والحصر في ساحة الدوار . ونثرنا عشرات من الكلوبات جعلت المكان في الليل ، وكأننا في عز الظهر ، وقام محل « الفراشة » في البندر باعداد المكان على خير ما يرام . بطن الجدران بلوازم السرادقات ، وزود الدوار بالمفارش والسجاجيد ، والصواني ، والاطباق ، والفضيات ، وعموما بسائر ما يلزم لليلةعامرة، لم يحدث لها مثيل من قبل ، في المديرية كلها . وكنا في الانتظار : أنا ، والمأمور ، واعيان البندر ، والضباط وأعيان « الدراويش » – وجاءت سيمون مع حامد ، واخيه احمد ، الى الدوار ، بمظهر ابهج قلبي كذكر ، واغضبني كرجل . ظهرها عار حتى المنصف ، وشعرها مرفوع عن عنقها الطويل الذي يشبه عنق الغزال . وثدياها بارزان ، ناهدان ، والنقرة بينهما مفتوحة وفاضحة ، وذيل فستانها الاحمر قصير، فوق الركبتين . وكان شباب الدراويش ، والبلاد المجاورة ، يتصايحون، خارج الدوار ، كالمجانين . وفكرت انها ستفسدهم ، وتفتن علينا نساءنا المحجبات ، وبناتنا العفيفات . لكن، ما باليد حيلة . فهذه هي الحال في بلادها ، ومن شب على امر شاب عليه وهي بعد ضيفة ، وزوجة واحد من ابناء الدراويش . غير انني استحقرت حامد من كل قلبي . وصغر في عيني ، وهمست لنفسي ، في سري ((النطع)) .

كانت سيمون هي المرأة الوحيدة في الدوار باستثناء الراقصة، فمن يقبل ان يأتي بامرأته الى مثل هذا المجلس في الدراويش ، ولم

يفعلها اي أحد من البندر ، من المأمور ، الى الضباط ، الى طبيب البندر ، والمهندس الزراعي ، ومفتش التموين . جلسنا جميعا حول سفرة واحدة ، وجلس سائر الاعيان الى موائد اخرى . وقام المأمور بنفسه ، بترتيب جلوسنا . أجلس سيمون في الصدارة ، وجلس هو عن يسارها بمقابل زوجها ، بينما جلست أنا في مقابل سيمون على الطرف الاخر . وأردت ان اداعبه ، لاول مرة على مجلسه منها ، فقال لي:

ـ هذه هي الاصول يا عمدة .

وكانت الاصوات تأتي من خارج الدوار عالية . والخفر والعسكر يزودون بالعصي : النسوة ، والاطفال ، وشباب الدراويش المسحورين بسيمون . وكان محل « الفراشة » قد حل لنا مشكلة الشوك والسكاكين ، فجاء بدستتين منها ، وحللنا المشكلة التي واجهها احمد البحيري في بيته ، على الغداء ، حين لم يجد شوكة واحدة في الدراويش . وراحت سيمون تأكل بالشوكة والسكين في براعة ومهارة ، دون ان تجرح نفسها باصابع الشوكة ، او بحد السكين المرهف الذي يقطع اللحم بمجرد لمسة . فعل مثلها حامد ، والمأمور ، والضباط ، والطبيب ، والمهندس . أما أنا وأحمد البحيري ، فأخذنا نحاول ان نأكل مثلهم بعذاب بالغ ، عن نفسي لم آكل شيئا يذكر . فلم اسمح لنفسي بالخطأ امام سيمون . وواريت ذلك وراء ستار القناعة ، والشبع ، والتعفف ، وكثرة المجاملة والعزومة التي دهشت لها سيمون . وأكثر من مرة ، زغرت انا والمأمور للاعيان الاجلاف . وهم يكرعون الماء والشوربة ، بأصوات مسموعة ، بدت لي ، في حضرة سيمون ، غير لائقة . وكانوا يقطعون الدجاج والحمام بأيديهم ، فيسيل منها الدهن ، ويملأون أشداقهم بالطعام ، ثم يلوكونه ، ويتجشأون . ومع ذلك لا يتوقفون عن طلب المزيد ، ويعلم الله انهم لم يغرموا فيما يأكلونه مليما واحدا . ولكن لا حياة لمن تنادي ، فحين تنفتح البطون تغيب العقول .

لم تأكل سيمون كثيرا ، وجففت شفتيها بطرف الفوطة ، واعتذرت عن غسل يديها وفمها . وأرادت أن تظل جالسة حتى ينتهي الجميع من الطعام ، لكنني ، أنا والمأمور اقنعناها بألا ضرورة لذلك ، فنهضت ونهضنا معها ، المأمور ، وأنا ، ومعاون المأمور ، وحامد ، واحمد ، وظل الآخرون يملأون بطونهم ، التي صاموا لها طول النهار . أخذناها الى الشرفة المفروشة بالسجاجيد والارائك الوثيرة . وجلست في مكان الشرف مع حامد ، واخذت تروح عن نفسها بمروحة انيقة ملونة ، رأيتها ، أحيانا ، مع غواني الكباريهات في ملاهي مصر . واغتظت من الذباب المحوم حول الكلوبات ، والفراش ، والناموس فاعتذرت لها بواسطة محمود بن المنسى (الطالب النابه ، ابن الخولي الذي يعمل في ارضي) لكن حامد هون علينا الامر ، بأنهما قد احتاطا لذلك ، بواسطة دهان خاص ، دهنوا به جلدهما ، حتى لا يقترب منهما الذباب والناموس ، او يصيبا هما ماذى . فحدثت نفسي انه حقا فوق كل ذي علم عليم .

دارت علينا اكواب المانجو ، والشاي ، وفناجين القهوة . واخذ الرجال يلعبون التحطيب في وسط الدوار . ثم راح ابراهيم المنشد يغني بأحد مواويل الحب ، على انغام الناي . ثم نزلت الى الدوار راقصة غجرية ، جئنا بها خصيصا لهذه الساعة ، ورقصت على ايقاع الطبلة والناي والطار . وكانت سيمون تتفرج ، وتتحدث في الوقت نفسه مع الضباط الذين يعرفون لغة بلادها ، وبينهم واحد زار بلادها يوما ، واقام فيها عاما ومع محمود بن المنسى الذي يعرف الكثير عن بلادها ، وهو الذي لم يزر بلادها ابدا ، بل انه أخذ منها كلاما وأعطاها مثله ، عن منشدين من بلادها .

وكان حامد ، أو كما تناديه سيمون : هامد ، كريما معنا . دعانا ، المأمور ، ثم أنا ، الى غرفة داخلية بالدوار وترك سيمون في الشرفة ، تتحدث ، وتتفرج ، وتلتقط عشرات الصور . ومنح حامد مئات من الجنيهات ، للمأمور من أجل رجال الشرطة ، ويعلم الله كم سيأخذون منها حقا . ولي من اجل الخفر واصلاح الدراويش ، وتكاليف الاستقبال التي ضاعفها خارج الدوار ، ويتعلقون بالسور ، وسط ظلام لا يخفف منه سوى ضوء الكلوبات الساطع في ساحة الدوار ، ويزعقون ، ويهتفون ، ويدعون لحامد بمزيد من العز ، وطول العمر ، وان تبقى له الخوجابة الفرنساوية .

ما دفعه حامد بن مصطفى البحيري ، في ذلك اليوم ، كان يكفي لشراء فدانين ، في زمن ارتفعت فيه أسعار الارض والقطن وايجار الفدان ، وتذكرت واهب النعم ، ومقسم الحظوظ . وفهمت ما عناه امام المسجد عندما كان يقول لنا . « وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم » . اي نعم . خرج حامد من بلدنا طريدا شريدا ، وعاد من وراء سبعة بحار ، عزيزا مكرما ، مثل حسن البصري الذي يحكى عنه ابراهيم المنشد . وتمنيت لو بقى حامد معنا ، الى أن يحين الاجل . وكدت ان أعبر له عن امنيتي ، لكنني خشيت ان الفت نظره الى شيء غائب عنه . فيغفلها ويبقى في الدراويش . خشيت منه على العمودية ، وخشيت ان تعلو عائلته المستضعفة ، به ، وبماله ، على عائلتي . ولم أعرف : هل احبه ام اكرهه ؟ وعجبت من قضاء الله وارادته وتصريفه . أنا أكبر رأس في الدراويش ، ويأتي ابن البحيري ، ليؤكد لي انه اكبر مني . وعائلتي اكثر عائلة في الدراويش مالا ، واعزها نفرا ، ويأتي ابن البحيري ليجعل لعائلته عزوة به وبماله ، وبزوجته الفرنسية ، وبمظهرها الذي يؤكد لنا جميعا ، اننا ... استغفر الله . فقد كرم بني آدم ، وخلقهم على صورته .

انقضى الحفل تلك الليلة بسلام . وقد التقطت له سيمون العشرات من الصور بينها صورة لي ، قالت انها ستكون بالالوان ، وسوف تبعث بها الي من باريس وعاد كل الى بيته ليستريح . وظل خيال سيمون معي . لم يبارحني طيفها وأنا نائم . حسبت مرة انها حورية من الجنة ، ومرة جنية خرجت من البحر ، ومرة فتنة سلطها الشيطان على الدراويش في صحبة حامد البحيري . وحين اقتربت مني زوجتي ، تلك الليلة ، متزينة على غير العادة ، ومتعطرة اكثر من ليلة الزفاف ، ومتى ؟ بعد خمس وعشرين سنة من الزواج !! صحت بها ، وادرت لها ظهري . لا أكذب على نفسي ، اذا قلت انني احسست بها ، في هذه اللحظة ، كبقرة ، مجرد بقرة . طيف حامد ، نفسه ، جعلني ، وأنا ادلف الى الموت الصغير ، أحس من أنا بحياله . خطر لي ذلك ، وانا احاول النوم ، بعد طول سهاد وتفكير ، فيما ينبغي ان أفعله ، بما أعطاه حامد لي من مال . ورحت أستعيذ بالله من الفتنة بسيمون ، وببلاد الفرنسيين التي تتخايل لعيني كجنة عدن .

***

احدث حامد وسيمون ، بمجرد وجودهما في البيت ، والدراويش ، اضرارا شديدة لي ، ولامي ، ولزينب . وينبغي أن اذكر ان اولاد الدراويش الشياطين ، لم يعد يحلو لهما التبول الا تحت حوائط بيتي . فأرسل العمدة خفيرا يحرسه طول الليل . وأن هؤلاء الاولاد العفاريت قد كسروا زجاج ورتاين الكلوبات والفوانيس ، المعلقة على نواصي الحارات ، فعادت الدراويش الى ظلامها القديم . وخيل لي ان زينب مفتونة بحامد ، وأنها تنافس سيمون عليه ، بالتقرب منه ، والابتسام له ، والجري لخدمته ، والتفنن في التزين من اجله ، لا . بل انه حقيقة ، فقد صارت زينب تخاطبه مثل سيمون :

ـ اوه .. هامد .. بردون .. مسيو هامد .. مرسيه .

بل صارت تقول لسيمون . وهي لا تفهم ماذا تقول لها سيمون :

ـ وي مدام ..

بل ان زينب ، حين كانت تنفرد بي في الغرفة ، بعد ان قصت لها سيمون شعرها ، كانت تقول لي :

ـ بردون شيري .. سي أهمد ..

ووصل بها الامر ، الى حد أنها رفضتني ، لاول مرة ، ذات ليلة ،

بحجة أنها متعبة ، ولا نفس لها . وانها سئمت هذه المعاشرة كالارانب. ووجدتني أكاد أتذلل لها ، وانوسل ، فقالت لي :

ـ هيه .. هيجتك ؟

ـ من ؟

ـ هي ... اناديها لك ..

أوشكت مرارا ان آتي بالخيزرانة ، وأضربها ، وأظل أضربها حتى يعود لها صوابها، كيوم ادعت ان عليها عفريتا، وانه يريد زارا. ووددت ان الطمها على فمها كلما نطقت : أهمد .. وي .. حتى يسيل منه الدم ، لكنني كنت خائفا في الحقيقة ، في ان تنكر سيمون عليّ ذلك، ولا قبل لي بغضبها عليّ ، أو ينظر اليّ حامد باحتقار . وكانت امي تضحك ، كعفاريت المقابر ، كلما شهدت أزمة بيني وبين زينب ،ثم تغادرنا لتنام على السطح في العراء ، لنستطيع ان نتفاهم معا .وافلحت ذات مرة ، في ترويض زينب ، فشعرت بانها باردة كالبلاط في الشتاء، وبنفسي ثقيل الظل ، امارس العادة السرية بصعوبة متعبة ، حتى انني ادرت لها ظهري في النهاية ، غير راض ، ودون ان أقول لها كلمة . وعجزت عن النوم ، الى أن صاحت الديوك ، ونهقت الحمير ، وكفت الكلاب عن النباح .

وفكرت ان زينب لو أحست أنني معجب حقا بسيمون الى حد الحب ، لتوقفت عن عنايتها واهتمامها بحامد ، وذلك ما حاولت ان افعله على مرأى من زينب ، مع سيمون ، لاحتفظ بها ، لاجعلها تغار عليّ . لكنها لم تبد أبدا ما يدل على غيرتها . كانت فقط تغار على حامد من سيمون ، وتسخر مني لانها تعرف سلفا ان مثل سيمون لن تهتم بي . وعيرتني ذات مرة ، بانني لست مثل حامد . فلطمتها ، في تلك اللحظة ، على وجهها . لم تبك ، وانما خرجت غاضبة ، وجلست في صالة البيت ، تنصت ، علها تسمع صوتا من وراء الباب المغلق على حامد وسيمون .

واصاب امي نوع من الخبل ، اكثر مما كان لديها منه . ففي الظهر ، كل يوم وساعة الفيلولة تفرض نفسها علينا (حتى على سيمون التي ذكرت لنا مرة انها لا تنام في النهار) كانت امي تنبطح على بطنها ، فوق سطح الدار ، تدلي رأسها ، تقريبا ، من حافة السقف ، وتروح تنادي كل من يسير في الطريق ، ان يدخل الدار ليأكل ، فعندها أكل كثير يرمي في كل يوم للدجاج ، حتى انه تعود اكل اللحم ، ولم يعد يأكل سواه ، وأصيب بالسعار ، وسوف يأكل لحم بعضه ذات يوم ، عندما نرجع حليمة لعادتها القديمة :الفقر، وقصر ذات اليد ، كنت اسمع امي كأنها تحدث نفسها بصوت مرتفع. وكنت أخشى أن يسمعها حامد ، برغم بعد غرفته عن مكانها ، حيث تظل نافذته على المزارع المليئة بالاشجار والنخيل . فأصعد الى السطح لاعيد امي الى صوابها ، مرة بالغضب ، ومرة باللين ، وحتى لا تظن سيمون بها الظنون ، أنها مجنونة مثلا ، فتصيح امي بي ، وكان سيمون قد قالت لها ذلك فعلا ، في وجهها :

ـ انا مجنونة يا سيمون . طيب . بنت العفاريت الحمر . والله لافرجها . ان تركتها تقعد في بيتي . ان تركته يبقى معها دقيقة واحدة .

فأهزها صائحا فيها بهمس ، لاعيدها الى صوابها :

ـ أنا أقول مثلا ، مثلا ، مثلا يا أمي .هي لم تقل ذلك . لكن، ربما تفكر فيه . فتبعدني عنها غاضبة ، وتعود الى منامتها ، في ظل جدار غرفة الدجاج ، ومثلث المنور الزجاجي ، وتنطوي على نفسها، وتروح تهتز في جلستها ، وكأنها تبكي على أحد .

اربكني حامد ، وبرجلني . عقلي يقول لي انه اخي (وأنا فخور به امام الناس ، وقد ارتفع سعري في الدراويش ، وفي البندر ، وراجت دكانتي التي يديرها الان ابني الاكبر على صفره) . لكنني لا أشعر بانه اخي حقا ، ولا ذكرى واحدة قديمة عشناها معا ، اجدها في نفسي . ما يزال غريبا بالنسبة لي أنا على العكس من امي ، التي تذكر كل ما كان منه ، بل وتضيف حكايات اخرى من عندها ، على انها حدثت منه ، في سنواته العشر التي عاشها في الدراويش ، مع علمي بأنها لم تحدث منه ابدا ، ولا تسأم من تذكيره بها ، وحكايتها للجيران والعجائز ، مؤكدة لهم جميعا ، انه حقا مسعد ، لان اسنانه مفلجة ، وقد عرفت هي ذلك عنه منذ صغره ، وله من العمر سنة واحدة . وبدت لي امي مصابة حقا بالخبال ، الذي اصاب زينب اضعافه .

ذات يوم عدت الى البيت من الدكانة ، بعد مباشرة قصيرة لشئونها . رأيت النسوة على وجه مغرب ، فوق اسطح البيوت المجاورة ، والاطفال ، ينصتون مفتوحي الافواه ، وهم ينظرون الى باب دارنا المغلق . اسرعت في خطوي ، فاذا بي أسمع موسيقى أجنبية، تنبعث من قلب البيت . طردت الاطفال ، وشوحت بيدي للنسوة ليعدن الى قلب الدور . ودخلت البيت ، ورددت الباب ورائي . قبل ان ارى مدى عصيانهم لامري . كان بابه مغلقا ، وكانت الموسيقى تهز الجدران هزا خفيفا. ورأيت امي تنظر من ثقب الباب ، وزينب تبعدها لترى بدورها . صحت بهما ، فابتعدتا الى وسط الصالة . واقتربت انا من الباب ، ونظرت من ثقب مفتاحه . كانا يرقصان معا .ولم أعرف لي رأسا من قدمين . أعجبني المشهد واثارني . ارضاني واغضبني . استدرت لاحتد في وجه زينب وأمي ، فوجدت زينب ترقص ، وكفاها، على ذراعيها ، تقلدان امساكة سيمون بحامد ، وامي تضحك سعيدة لها . يا الهي . انها تحلم . تحلم به . تحلم معه . نظرت حولي ، فاقدا صوابي ، باحثا عن شيء أقذف به في وجهها . لكنها اسرعت بالهرب هي وامي . واغلقتا عليهما باب الغرفة . تنهدت في غيظ ، وانتظرت لحظة ، ثم انحنيت على ثقب الباب ، لارى سيمون ، وهي تنقل خطوها بشطارة مع حامد ، دون ان يدوس احدهما على قدم الاخر، وتدفن جانب وجهها في انحناءة كتفه ، على صدره . سبحان مقسم الحظوظ والارزاق ، ويا ضيعة عمرك يا أحمد يا ابن مصطفى البحيري. واسرعت بالخروج من الدار هاربا ، أبحث عن ظل شجرة ، التقط فيه نفسي ، وافرج عما في قلبي . احسست انني احب سيمون من كل قلبي ، وانني لم أحب أحدا قبلها ، وان زينب تزوجتني، لكنها لم تحبني ابدا . وفكرت أنني كنت أطبق يدي على فراغ ، وان ما كان فيهما لم يكن سوى مجرد وهم . ووجدت حزني اكبر من ان اقدر معه على التفريج عن نفسي بالبكاء . ورحت اغري نفسي ، بانه ربما كان ما بين حامد وسيمون ، مثل ما بيني وبين زينب . فمن يدري حقا، ماذا تخبئه القلوب ، وتخفيه الجدران .

٣ ـ مذكرات محمود بن المنسي :
الجمعة ١٠ اغسطس

اليوم سافر حامد البحيري وحده ، بسيارته الحمراء الى القاهرة. ليتعاقد على استيراد بعض البضائع التي تحتاجها تجارته في باريس، وبخاصة للاكلات الشرقية في مطاعمه وفندقه ، ولكي يرى أصدقاءه المصريين الذين تعرف اليهم في عاصمة النور .

وسوف تستغرق رحلته خمسة أيام ، يعود بها ليستعد للرحيل مع سيمون من الدراويش ، يوم الجمعة القادم .

قبل ان يركب حامد سيارته ، ويودع سيمون ، أوصى حامد اخاه احمد بسيمون . ثم اوصاني بها ، لتقضي خمسة ايام سعيدة ،وسعيدة جدا . وملأ حامد جيبي بما سوف يحتاجه تجوال سيمون في الدراويش، والنواحي المحيطة بها من نفقات . وأنا سعيد بحمل هذه المسئولية .

وعلى ان اضع لها برنامج كل يوم ، وساعة بساعة ، كما كنت افعل مع جدول مذكراتي اليومي في البيت وقد ذكر لنا حامد ان بوسع اخيه ان يصحبنا في نزهاتنا اذا شاء ، وكلما واتته فرصة لذلك . وقبلته سيمون على الطريق الزراعي ، وعانقته . وركب حامد

سيارته وادار موتورها ، فراحت سيمون تلوح له بمنديل ابيض ، وهي تصيح به ان يقضي اجازة سعيدة . وكان احمد البحيري مشدوها مما يراه بعينيه ، خجلا من الناس الجالسين في المقهى ، والذين راحوا يضربون كفا بكف ، مستعيذين بالله من الجهل ، والفتنة ، وعذاب القبر .

ورغبت سيمون في ان تسير معا ، قليلا من الوقت ، على الطريق الزراعي ، قبل ان نعود الى البيت ، وطلبت من احمد بلباقة ، ان لا يتقيد هو بها ، واكدت له انها سوف تعودبسرعة . ونقلت له رغبتها ، فادرك ما تريده ، وحياها بادب ، وانصرف عائدا وعبرالقنطرة. وقالت لي سيمون ، انها سعيدة بسفر حامد ، لانها سوف تتحرر من الرسميات ، وتتعرف تعرفا حقيقيا الى اهل الدراويش ، وعلى الطبيعة في بلادنا ، وقالت لي سيمون ، انه كان بودها ان تكون مع حامد في هذه الايام ، للتجول معه في القاهرة ، لكنه وعدها امس، بمد فترة وجودهما في بلادنا اسبوعا آخر ، سوف يقضيانه بعد سفرهما من الدراويش ،في القاهرة ، والاقصر ، والفيوم ،والاسكندرية. وقالت لي سيمون ، انها تواجه صعوبة بالغة ، في التفاهم مع حماتها وزينب بسبب ضآلة الكلمات التي تعرفها من العربية ، وندرة ما تعرفانه من اللغة الفرنسية ، وان عليّ ، لهذا السبب ، ان اكون قريبا منها ، اكثر الوقت ، حتى في البيت . ووعدتها بذلك ، واكدت لها انني لست مشغولا بشيء آخر ، وانني تحت امرها دائما . فضغطت على يدي شاكرة . انني سعيد حقا بالتعرف الى سيمون .

واستدرنا عائدين ، على الطريق الزراعي ، الى الدراويش.كانت سيمون ساهمة ، مطرقة الرأس قليلا ، شاردة البال . وبدا لي، انها تشعر الان بانها وحيدة ، وسط غرباء عنها تماما . وأحسب انني رأيتها تمسح دمعة ندت ، برغمها ، بطرف منديلها الابيض الذي ودعت به حامد ، لكنها سرعان ما رفعت رأسها ، ونحن نقترب من بيت البحيري . وفاجأتني بان قالت لي ، انها ستعتكف حتى صباح غدفي البيت ، مع زينب ، وأم حامد ، لتستريح أولا ، ولتتعرف جيدا على حماتها وسلفتها ، وضحكت . ثم صافحتني مودعة الى صباح اليوم التالي . وحين دخلت البيت . أحسست فجأة بالاشياء من حولي، وبعيون الناس التي نسيتها وانا مع سيمون ، فأسرعت في خطوي عائدا الى البيت .

من المؤسف ، انني لم ابدأ في تسجيل هذه المذكرات من قبل، يوما بيوم ، منذ وصول سيمون وحامد الى الدراويش . خطرت لي فكرة كتابة هذه المذكرات ، ونحن في وداع حامد . ولمت نفسي لانني لم انتبه الى ذلك ، لادون وجود سيمون في الدراويش ،في حدود ما اعلمه: ما رأيته ، وما سمعته ، وما ادركه . لكنني ، والحق اقول ، كنت غارقا في حركتهما التي لا تهدأ ، منبهرا الى حد الصدمة بحيوية سيمون، وبمحاولة الوعي بمغامرة حامد وراء الدراويش ، بعيدا عن الدراويش، وعبر البحار السبعة . وعليّ الآن ان اتذكر ما حدث في هذا الاسبوع الذي مضى .

خلال الاسبوع الفائت ، أقيمت لسيمون وحامد، عديد من الولائم والمقابلات والزيارات ،في بيت أحمد البحيري ، وبيوت الاعيان ، وبيت المأمور ، بل وفي بيت مدير المديرية نفسه . وكانت الدعوة دائما على غداء ، او عشاء ، او على شرب شاي . وكنت على الهامش في اكثر هذه الزيارات والدعوات ، لوجود حامد بجوار سيمون دائما ، ولمعرفة بعض الحاضرين لعدة كلمات وجمل فرنسية ، واكثر منها انجليزية ،وهذه تجيدها سيمون ايضا .

لكن اغرب هذه الزيارات التي قمنا بها ، كانت زيارتنا لدار ابن لقمان بالمنصورة . لقد طلبت سيمون هذه الزيارة ، فدبر لها المأمور ذلك في اليوم التالي . وكان يوم الاربعاء الماضي . أرادت سيمون ان ترى السجن الذي سجن فيه الملك الفرنسي الاسير يوما .ورأت القيد ، والمكان ، والحارس ، وذهبنا الى حديقة شجرة الدر ، وسردنا لها ما فعلته شجرة الدر حين مات زوجها الملك . وفي الطريق ،الى السيارة ، ونحن داخل الحديقة مالت نحوي وسألتني :

ـ قل لي .. هل حقا أن السجان صبيح قد خصى الملك ؟

اجبتها بصدق ، وفي حرج بالغ من سؤالها ، الذي يشي بمدى ما يعتقده قومها فينا :

ـ حقيقة . لا أعرف .

فعادت تقول :

ـ ما معنى كلمة «طواشي» اذن ؟

فقلت لها :

ـ لا أعرف ايضا ، لكنني سأسأل .

عادت تسأل :

ـ حسنا . ما الكلمة التي تقابلها بالفرنسية ؟

هززت لها رأسي معبرا عن عجزي عن الاجابة . (وسوف احاول ان أعرف معنى هذه الكلمة) . ولعنت في سري هذا الشاعر الذي قال يوما ، ووصلت قولته الى باريس : « والقيد باق ، والطواشي صبيح» وأردت ان أحدثها عن الالاف السبعة عشر الذين قتلوا بأيدي قومها في هذه المعركة ، وفي الدراويش وحدها ، وعن النساء اللاتي قدت بطونهن لمعرفة ما يحملن من ذكور او اناث ، وعن الدجاج والبط في الدروايش ، الذي كان يقتل بدك عصاة في مؤخرته حتى تخرج من العنق او الفم ، وعن القرى التي ابيدت باسرها على يد جيش نابليون. لكنني راعيت انها ضيفة ، وانه لا ذنب لها في كل ما حدث ، وأنها حين كانت تسألني ، لم يكن في وجهها أو صوتها ، ما يدل على أي حقد او سخرية . لكن ، من يدري ، فهذا الوجه الاوروبي يمكن ان يخفي وراءه ما لا نراه العينان ، او تسمعه الاذنان . لكن ، لماذا آخذها بالظن، والظن اثم ذميم ؟!

في بيت المأمور ، يوم الثلاثاء الماضي ، ومع كئوس الشراب غير المباح ، بدأ حامد اكثر ما كان منذ رأيته ، على طبيعته ، وراح يتحدث عن قصة حياته . هرب على قدميه من الدراويش ، سار على قدميه ، وتسلق القطارات خلسة ، وعمل صبيا في حرف كثيرة ، اياما لا اكثر، ومن بلد الى بلد ،حتى انتهى به المطاف الى الاسكندرية . واتيح له ان يعمل غاسل اطباق في أحدى البواخر ، وطوف معها في الموانىء والاقطار والبحار ، ثم انتهى به الطواف الى العمل كخادم ، في مقهى جزائري بباريس . ولاحظت أن الكل كان سعيدا بما كان حامديحكيه.

وأمس ذهبت للجلوس معهما ، امام العشة او الفيلا الانيقة ، على شاطىء البحر . وكان حامد وسيمون ممددين احدهما بجوار الاخر، وقد رفع حامد نصفه الاعلى ، متكئا على مرفقيه . بينما وضعت سيمون رأسها على كتفه ، وراحت تحاول تخمين البلد المقابل لمكانها على الشاطىء البعيد الآخر ، شاطىء لا يرى ، وترنو الى حامد راضية ومفتونة . ومن عجب ، بغير خجل من ماضيه . كان البحر هائجا ، وكانت الرايات السوداء مرفوعة على طول الشاطىء . وأثار ذلك حامد ،فابعد رأس سيمون عن كتفه برفق ، ثم وثب عاريا ، وارتمى في مياه البحر ، واخذ يلاطمها بساعديه . صاحت سيمون عندئذ :

ـ اوه .. هامد .

أردت عندئذ ان الحق به، وان ادعو حارس البحر لنجدته ، لكنها امسكت بي قائلة :

ـ لا تخف عليه . انه هكذا . وهو ما هو في العوم . امهر من سمكة .

وراح حارس الشاطىء ينفخ في صفارته ، ويصيح محذرا ، ثم وضع طوق النجاة حول عنقه ، واوشك ان يلحقه ، ليأتي به من وسط الامواج الهادرة ، المتلاطمة، لكنه رآه عائدا، فراح يقذف بكلمات محتجة. ومنحته سيمون ريالا فضيا ، فابتسم ، ومدح لها زوجها بانه سباح ماهر . وطلب منها ان تمنعه من ان يصارع البحر في المرة القادمة. فالبحر خائن وغادر ، مثل الموت وعزرائيل . وذكر لها (بالمناسبة)ان

عزرائيل يقيم عادة في البحر ، حين لا تكون وراءه مهمة لقبض روح احد ، لكنه يحلو له ، أحيانا ، ان يتسلى بمن يقنحمون عليه بيته ، عندما تكون الامواج غاضبة ، لتعزف له الموسيقى التي ينام على صوتها . ضحكت سيمون كثيرا ، وأنا أترجم لها كلامه ، الذي بدا انه يؤلفه لساعته . ونفخته ريالا فضيا آخر . وكان حامد قد اتى يزفر قطرات الماء المتساقطة من شعر رأسه وحاجبيه . ثم ذهب الى العشة ليأخذ دشا من المياه العذبة . وقلت لسيمون بالفرنسية ،ان حامد قاسى كثيرا وتعذب . كان ماثلا امامي ، ما كان يحكيه لنا من مغامرة حياته . فابتسمت سيمون وقالت لي :

ـ بل خبر الحياة .

وعاد حامد ، وجلس سعيدا ، يأكل بضع بيضات وقطعا من الجبن الرومي . وراحت سيمون تصب له من « الترموس » كوبا من الشاي الساخن . باريسي هو حقا ، لولا انه اسمر ، وشعره ، غير مسرح تماما ، وعيناه عسليتان واذناه ، احداهما مثقوبة من طرفها العلوي ومبتعدتان عن استدارة الشعر وراءهما كأنهما تنصتان ابدا ،وتعيان ابدا ، مع عينيه الفائرتين تحت الحاجبين الكثيفين . ومصري هو، لولا هذه اللمعة النضرة في جلدة وجهه ، وبشرته المحمرة حتى النحر، ربما من كثرة ما شرب من خمر ، وأكل من لحم الخنزير ، ووفرة الحمامات الساخنة والباردة التي اخذها في سنوات عديدة ، وحرصه الدائم على تناول الخضروات والفواكه الغنية بالفيتامينات . لا يخلو قلبي من حسد له ، على الجسد الحي الفتي الذي يملكه والتكامل النفسي الذي احسه فيه ، وعلى سيمون التي أحبته . أبرد لنفسي تفوقه بان هذا هو حظه ونصيبه ، عندما اختار المغامرة طريقالحياته طريقا كان يمكن ان يقذف به ، غالبا ، في هاوية الفقر والمرض واليأس . لكنني لا أشعر نحو ما هو فيه ، هو ابن الدراويش بأي عدل . فأهل الدراويش .. ليس من أحد، من ابناء الدراويش ، لا يعرف ما نحن حقا فيه ، منذ جاء اليهم حامد ، ومنذ رأوا سيمون.

أمس . حين عدت معهما من الشاطىء ، وغادرتهما الى بيتي ، وجدت في انتظاري خطابا من كلية الطب ، يخطرني بقبولي كطالب ، وبالمجان ، لتفوقي . وقد نسيت اليوم ان اذكر لهما ، او لسيمون على الاقل ، هذا الخبر . وارجو الا انسى ذلك غدا . واذا افلحت في مسعاي لديهما . سأغير خططي لمستقبلي . فمنذ قدما ، وانا احلم بالحياة في باريس ، والدراسة في باريس ، لاحصل على اعلى شهادة ممكنة ، ومن باريس : الدكتوراه . بوسعهما ان يحصلا لي على منحة، اذا أرادا ان يقدما لي جميلا . بوسعهما ايضا ان ينفقا عليّ في باريس ، وسوف اكون ممتنا لهما مدى الحياة . وأنا بعد على استعداد للعمل لدى حامد في باريس، في فندقه ، او في احد مطاعمه، اي عمل يقبل ان يكلفني به . فمعرفتي بالفرنسية والانجليزية لا بأس بها . وسوف تتحسن كثيرا . لكن عليّ ان اكون على حذر . ينبغي الا اطلب ذلك صراحة . المهم ان ترضى عني سيمون ، وتعجب بي . واذا أحبتني ، لا مانع لديّ . وعندئذ ستعرض هي بنفسها ذلك عليّ، وستحدث حامد في الامر . وربما لم تكن في حاجة الى معونته . فهي صحفية . ومثلها له نفوذ في باريس . وله مسالكه وطرائقه. وعليّ اذن ان أكون على حذر ، وطيبا ، وذكيا ، وودودا . وبخاصةهذه الاشياء الاخيرة : الطيبة ، والذكاء ، والمودة ، التي لا أشعر بالحاجة الى التعامل بها ، هنا ، مع أهل الدراويش .

السبت ١١ اغسطس

اليوم . كان هو اليوم الاول ، الذي نقضيه معا ، وحدنا ، خارج الدراويش ، سائرين على اقدامنا . ارتديت قميصا وبنطلونا فاخرين لهذه المناسبة . فلامتني سيمون لاتلاف هذه الثياب . وطلبت مني ان البس ، فيهذه الايام ، بنطلون رحلات ، وقميصا غامقا بنصف كم.

ادهشني مظهرها البسيط للغاية . كانت تجمع شعرها خلف بونيه بحر . وترتدي بلوزة قطنية بنصف كم ، وبنطلونا قصيراً ، اقصر من السروال الداخلي الذي تلبسه امي . وكانت الكاميرا معلقة علىكتفها.

تركنا الدراويش وراءنا . وراحت العيون تحدق فينا كالعادة بحاصرنا من فوق الاسطح ومن وراء فتحات الابواب والنوافذ .

ورأت سيمون ، خارج البلد ، شجرة جميز عتيقة باركة عند ساقية مهجورة . منذ ان زحفت البيوت المتكاثرة ، في كل عام ، على المزارع . التقطت سيمون صور الشجرة الجميز من أكثر من زاوية، وتسلقتها بمرح ، وترددت في اللحاق بها ، بسبب عدم ملاءمة ثيابي. ثم جسنا في غابة من البوص والسمار الكثيفة ، حتى اطللنا على حافة المياه العطنة الراكدة . وسرنا على الحافة محاذرين من السقوط ، حتى خرجنا من وسط الغاب الوحشي المقرف . وجود سيمون معي جعلني احس بمعاني الاشياء الاكثر من ذي قبل ، بروائحها ، والوانها، وما هي عليه . فعند مدخل الغاب كان الاولاد قد تركوا بقاياهم ، وتكفلت حرارة الشمس بحمل رواتحها في ذرات الهواء .

ورأت سيمون النهر ، لاول مرة ، يمر بجانب بلدنا ، على مبعدة قريبة ، فصاحت بدهشة ، وعاتبتني لانني لم اجيء بها لترى نهرنا العظيم ، طوال الايام الماضية . وراحت تقارن بين زرقته واتساعه ولون مياه السين البني وضآلته ، فأخبرتها ان ماءه هو ايضا عذب المذاق جدا . فاسرعت تخلع الكاميرا عن كتفها ، وبدأت تفك ازرار قميصها. سألتها :

فقالت ببساطة :

ـ ساقطع هذا النهر سباحة ثم أعود .

فطلبت منها الا تفعل ذلك . فجفلت ، وسألتني عما اذا كان في نهرنا تماسيح ، فقلت لها ان التماسيح في الجنوب ، خارج وطننا، وتحجزها الشلالات والقناطر والسدود . ثم اخبرتها ان الفلاحين والاطفال يصابون بالامراض بسبب مياه هذا النهر . فعبرت لي عن اسفها لذلك . وراحت تلتقط صورا للنخيل على الشاطئين، والطيور، واشجار السنط والتوت . ثم مالت بي الى حقل قطعنا منه بعض خيارات ، وغسلناها من ماء الترموس الذي تحمله ، مع حقيبتها التي رفضت ان احملها عنها .

وجلسنا تحت ظل شجرة .في ارض « الفار » . وبدا ان الناس جميعا في المزارع قد رأوها في الدراويش . والفوها . وربما انتظروا ان تأتي اليهم في ارضهم ، فلم يظهروا اي دهشة لمرآها ، ولا لوجودي معها ، واسرعوا مقبلين علينا ، واتونا بالمزيد من القثاء والخيار . وشووا لنا على النار كيزانا من الذرة . وتحدثت معهم سيمون ، وتحدثوا معها . كانوا سعداء بها حقا . ولم يخل حديثهم مع بعضهم ، بلغة لا تعرفها هي ولم اترجمها انا ، من اظهار الاسف والاسى بسبب نسائهم ، ومن اظهار الرغبة فيها . لكن الامر لم يزدمنهم على مجرد الكلام . تعبت كثيرا في هذه الجلسة ، لانني قمت بنقل الكلام الذي قالته ، ومعظم الكلام الذي قالوه . وأركبوها حمارا بلا برذعة ، واخذت لها صورة معه ، وصورا معهم . ثم صافحتهم شاكرة لهم . وراحت تحدثني في الطريق عنهم . قالت انهم ، برغم فقرهم ، وسوء صحتهم كرماء . ثم سألتني :

ـ لماذا لا تستخدمون الآلات في مزارعكم ؟

فاجبتها بما استطعت ،عن الجهل ، وكثرة السكان وقلة رأس المال، والاستعمار الانجليزي . فعادت تعبر لي عن اسفها وتعتذر ، حين رأتني منفعلا بما اقول ، وكأنها هي السبب في كل ما حدث ، وكأنها نكأت في قلبي جراحا قديمة ومنسية .

بلغنا مشارف البندر . وبدت لي طوال الطريق كسائحة ،تكتشف من الدنيا ما لم تكن تعرف ، وتتصرف كطفلة ترى العالم لاول مرة، ولا تكف عن الحركة ، والمرح والوثب ، والكلام . وتغدينا في البندر ، في مطعم « الرهوان » : سمكا مقليا وشوربة سمك ، وارزا مطبوخا

بها ، وصلصة . وجاءها صاحب المطعم بنفسه ببيرة اسوانية مثلجة، فشربتها على الغداء حتى انتشت . واجبرتني على شربها معها ، لاول مرة ، فسكرت سريعا ، وبدأت تتساقط عني كل الاقنعة . فقلت لها انني احبها . فضحكت ، وقالت دون انزعاج :

ـ مسيو مهمود . أنت سكران . قم بنا نرجع الى الدراويش .

خجلت من نفسي . لكننا لم نعد الى الدراويش . ذهبنا الى مقهى على النهر ، يطل على ميناء قريب للقوارب ، ولسفينة تحمل الركاب الى المصيف . وجلسنا في الشرفة المستديرة بالطابق العلوي ، ورحنا نحتسي مزيدا من البيرة . وبلغت حدا من السرور والخفة ، جعلها ترفع من امامي زجاجة البيرة وتسكبها في النهر . قائلة :

ـ مسيو مهمود . معذرة . هذا يكفي.

وغادرنا المقهى ، وكانت الشمس تنحدر في الافق ، وابدت سيمون رغبتها في العودة الى الدراويش عن طريق النهر . فركبنا قاربا صغيرا، احسن قارب في الميناء . وكنت في حالة غير صالحة للتجديف ، فتناوبت سيمون التجديف مع صاحب القارب . ثم استلقت فوق مؤخرة القارب على ظهرها ، وراحت تتأمل الشاطيء ، في استدارة الافق ورحابته . ثم انكفأت على بطنها . وراحت توجه الدفة الصغيرة ، وتداعب زبد الماء المنساب . ولما كنا في وسط النهر ، وكان الماء جاريا فلم انبهها محذرا اياها من جراثيم البلهارسيا . اكتفيت بمراقبتها ، وقد استيقظت كل خلايا جسدي ، ولعب الهواء برأسي . لكنني لم اتجاوز مجرد التخيل . استسلمت فقط لاحلامي بها ، ومعها ، في صمت رهيب.

لوحت لي سيمون مودعة عند باب بيت البحيري . وكان علي ان اعود اليها بعد ساعتين ، لتفرجني على اشياء لديها . ولتسمر بواسطتي مع عائلة البحيري . وعندما عدت الى بيتي واجهتني مشكلة رائحة البيرة في فمي ، فاسرعت بغسل فمي بكربونات الصودا ، ومضغت ورقة نعناع ، وتعشيت ، ثم اسرعت بمغادرة البيت لامشي قليلا على الطريق الزراعي .وحتى لا يشم أحد رائحة البيرة في فمي ، وبرأسي نشوة لم تزل باقية .

ذهبت في الموعد الى بيت البحيري . ففتحت لي زينب الباب ، وقالت ساخرة :

ـ تفضل .. السنيورة تجلس على نار .

دخلت غرفتها بعد ان طرقت الباب ، وسمعتها تأذن لي بالدخول . كانت تدير اسطوانة موسيقية . وقد جلست الى النافذة ساهمة ، وهي تكتب في رسالة ، كلفتني بارسالها ، في صباح الغد من التندر الى باريس ، ثم اخذت تفرجني ، والموسيقى تعزف ، على البوم صور كان رأسانا متقاربين الى درجة شممت معها عطر الشانيل ينفذ الى قلب رأسي ، ويثير في صدري مشاعر مرهقة . وحاولت ان ابتعد عنها فلم أستطع ، حتى فتح الباب فجأة ، دون اي تنبيه . ورأيت أحمد بن مصطفى البحيري واقفا على الباب ، يقول لي :

ـ الله الله . والله عال . امش اخرج يا ولد .

سألتني ماذا يقول ، فقلت لها :

ـ انه يخبرني بأن ابي يريدني .

فقالت لي :

ـ حسنا . اذهب . ثم تعال .

تحركت نحو الباب فعلا لاذهب . وحاد احمد عن مدخله فعلا لاخرج. لكنه فجأة امسك بي قائلا :

ـ انتظر . على الاقل ستترجم لنا .

فنظرت اليه ، كانت في عينيه نظرة آمرة ، وراجية . واستدرت ناحية سيمون ، وذهبت اليها ، فسألتني :

ـ لم لم تذهب الى ابيك ؟

فقلت لها :

ـ قال لي مسيو أحمد ان ابي يريدني فيما بعد .. عندما اعود من هنا .

فنظرت الي سيمون بشك. ثم الى احمد. ثم تجاهلت الموقف كله، وقالت لاحمد ، وأنا اترجم له ما تقوله :

ـ اريد ان نتعشى فوق السطح ، في ضوء القمر .

فقال احمد :

ـ امرك يا ست الكل .

كان السطح قد سكبت عليه كمية من الفنيك والكولونيا ، بعد تنظيفه ، واغلاق الباب على الدجاج . فبدت الرائحة كأنها في صيدلية اثناء انتشار مرض وبائي . وفرش حصير ، بسطت فوقه سجادة ، ووضعت وسائد . وجلست سيمون في شبه الضوء ، القمري الاصفر. وجلست أنا بجوارها ، وجلس أحمد بجوارها من الناحية الاخرى . وبمقابلنا جلست الحماة وزينب تقلدانها في طريقة اكلها ، وتبتسمان احداهما للاخرى ، في سخرية واضحة . لا اعتقد انها كانت خافية على سيمون . ومن حولنا ، كانت عيون الجيران ، تحدق عبر اكوام القش والحطب ، من فوق الاسطح الملاصقة ، والقريبة ، والبعيدة .

وانتهينا من العشاء ، ففتحت سيمون مظروفا كبيرا به مجموعة من الصور الخاصة بعائلتها ، وراحت تريها للحماة . ولزينب ، ولاحمد . كانت الصور لها مع ولديها ، ولها مع حامد ، ولحامد معهما ، في البيت ، والمدرسة ، والفندق ، والمطاعم والشوارع ، وفي ميدان الشانزليزيه ، وشارع البوليفار، وبرج ايفل ، والمتاحف، وتوقف احمد عند صور الفندق والمطاعم كثيرا . بينما توقفت زينب محدقة في صور الباريسيات اللاتي يظهرن في خلفية الصور . اما الحماة ، فقد احتفظت طويلا بصور حفيديها : البنت ، والابن . بل راحت تطري وسامتهما ، وجمالهما . فأعطتها سيمون واحدة تجمعهما وحامد والابن والابنة . وكانت سعيدة لفرح حماتها بهذه الصورة ، ولانها طلبت من احمد ان يضعها غدا في اطار ، ويعلقها بالصالون تذكارا للحفيدين . واحسب انني شممت رائحة غير طيبة ، وانا اراقب انفعالات احمد البحيري وزوجته زينب . كان الحسد واضحا في حركاتهما وعيونهما لا يخفى . ورجوت الا تحس به سيمون التي اعتقد انه لا عهد لها بمثله ، على الاقل بهذه الصورة .

وحدث ان سيمون جلست ثانية فخذيها فوق ساقيها المطويتين بجانبها وتحتها . وفجأة ، صاحت بي معاتبة :

ـ مسيو مهمود . هل داعبت قدمي ؟

ارتبكت لحظة . ونظرت الى احمد الجالس في الناحية الاخرى، وكانت ساقاها في ناحيته . وقلت لها :

ـ لا . لم يحدث .

عندئذ قالت سيمون لي ، وهي تنظر الى احمد :

ـ قل له انني مخلصة لزوجي .

فنظرت الى احمد ، ثم الى زينب ، ثم اليها ، وقلت لها :

ـ لا استطيع .

فقالت :

ـ لم .

فقلت لها :

ـ زوجته ستعرف .

فابتسمت ابتسامة حلوة ، ودودة وقالت لي :

ـ انت حساس جدا .

وفاجأتني ، بأن التفتت الى احمد البحيري ، وقالت له بلهجتنا كلمة لم اسمعها منها من قبل ، ويبدو ان حامد كان يقولها ، احيانا، لابنه ، او ابنته . قالت دون ان تعدل من جلستها :

ـ عيب .

التقطت زينب الكلمة . وانتفضت واقفة فوق السطح ، ناظرة الى زوجها ، وارادت ان تتكلم ، فتضاربت الفاظ لم تنطق في فمها، وولت هاربة . وبان الخجل على احمد . فنهض مستأذنا لينام . وعندما اختفى ، ضحكت وقالت لي :

ـ هذا افضل . لتكف هي عن الجري وراء حامد ، ويكف هو عن معاكستي .

ولم تكن الحماة ، بسبب ثقل سمعها ، قد وعت شيئا مما يحدث. ونهضنا عائدين الى اسفل . وودعتها ، وانصرفت عائدا الى بيتي .

الاثنين ١٣ أغسطس

لم اتمكن من كتابة يومية امس . كنت مرهقا الى ابعد حد . اخذني سيمون امس الى شوارع القرية . ودخلت بي اكثر من بيت. وتحدثت الى الناس طويلا ، الرجال والنساء والصبية . لم اكن انا الذي اقودها ، كانت هي التي تحركني ، في بلدي . بدا لي من كثرة ما التقطته من صور ، وأجرته من احاديث ، انها ستكتب للصحيفة التي تعمل بها في باريس عن الدراويش ، وأهل الدراويش . وذهبنا الى المقهى . وشربت زجاجة سباتس غير مثلجة . وقالت لي انها ستكتب فعلا عن الدراويش عدة تحقيقات صحفية . ثم اخبرتني ان سيدة جاءتني قبل ان اقابلها ، امس ، وسألتها عن علاج لعيني ابنتها، فأسرعت الى حقيبتها ، وجاءت بقطرة ، وقطرت منها في عيني الطفلة الصغيرة . وقالت لي ان رأس الصغيرة كان قذرا جدا ، فأخذتها الى الحمام . وغسلت لها رأسها بالماء ، ثم بالشامبو . وصاحت سيمون في دهشة :

ـ تصور مسيو مهمود . كانت في رأسها حشرات كثيرة ، صغيرة جدا .

غمرني الخجل من الدراويش ، فقلت لها :

ـ لا بد ان اهلها فقراء جدا .

فصاحت محتجة :

ـ ماذا تقول مسيو مهمود . الماء عندكم كثير جدا . وأين النيل مسيو مهمود ؟

ولما عدت الى البيت ، وتغديت ، حدثتني امي عن خيبتي لضياع وقتي مع الفرنساوية ، وقال لي ابي ، انها ستفسدني ، فخرجت غاضبا ، وجلست في المقهى ، حتى طلبني العمدة بعد الغروب . فذهبت الى الدوار مسرعا .

وجدت سيمون جالسة عنده ، مع زوجته ، وحريم الاعيان . وكان لا بد من وجودي وسط النسوة ، لأقوم بدوري كمترجم . وطالت السهرة الى ما بعد منتصف الليل . بين اكل وسمر وشاي ، واغان حزينة تمزق الكبد . ورقصت الست نفيسة ماشطة القرية، وقابلتها، وندابتها ، لسيمون . وغنت اغنية فرح ، وأغنية عمل ، ومرثية في قتيل . وأعجبت سيمون بأداء المرثية ، فرحت اترجم لها كلماتها، وهي تكتب ، بلهجة مؤثرة .

وفي الليل ، بعد منتصف الليل بكثير ، قام العمدة بتوصيلها معي الى بيت البحيري . وسألتها في الطريق اذا كانت لها رغبة في ان تذهب غدا الى المصيف بواسطة قارب . فقالت لي انها لن تفعل ذلك غدا (اليوم)، الا عندما يكون معها حامد . وذكرت لي انها سوف تعتكف غدا في النهار ، فوراءها عمل كثير ، ينبغي ان تنجزه . فعليها ان تكتب رسائل ، ومذكرات . ودون بعض الملاحظات وطلبت مني ان احضر فقط للغداء معها ، ومع احمد وزينب وحمامها ، وكنا قد وصلنا الى بيت البحيري، ففتحت لنا زينب الباب . وحين دخلت ، التفتت لنا زينب وقالت :

ـ تصبح على خير يا عمده .

ثم اغلقت الباب في وجهينا ، فراح العمدة يسبها طوال الطريق، ويسب زوجها احمد ، الى ان افترقنا .

وذهبت اليوم ناحية بيت البحيري ، قبيل الموعد بساعة ، مارا في طريقي الى المقهى ، الى ان يحين موعد الغداء الذي دعتني اليه سيمون امس ، فوجدت جمعا من النسوة والاطفال يقف امام البيت، وفي مدخله ، وصالته . توقفت لأرى ماذا يحدث ، فوجدت سيمون تضع قطرة في اعين الاطفال ، واحدا بعد الآخر . لمحتني ، فصاحت بي :

ـ مسيو مهمود . تعال وساعدني . لقد تعبت منذ الصباح ، ولم اكتب شيئا يذكر .

رحت اساعدها في عجب من امرها . تساءلت بيني وبين نفسي: من اين جاءت بكل هذه الكمية من الزجاجات الصغيرة المصفوفة بجانبها . وأخبرني احمد وكان جالسا يضحك في سخرية من حال سيمون ، انها كلفته اليوم بشرائها من البندر ، عندما جاء اليها اولاد الحرام من النساء والاطفال .

واقترب موعد الغداء ، وكنا قد انتهينا من مهمة وضع القطرة في العيون . فزجر احمد المتطفلين خارج الباب ، وأغلقه . وأخذت زينب تضع أطباق الطعام على المائدة . وأكثرها طهو مسلوق ، كالعادة. وطرق احمد باب غرفة سيمون يدعوها الى الطعام . ولأن سيمون لم تكن قد استطاعت ان تنجز اليوم ما عليها ان تكتبه او تدونه ، فقد اعتذرت عن برنامجنا في الليل ، وتركتها على موعد مع صباح اليوم التالي .

٤ ـ مصرع سيمون :

حدث ذلك في الصباح . كان اليوم يوم اثنين . جاءتني صاحبات لي من سني ، كلهن ينشدن حسن الختام : ام خليل ، وام ابراهيم ، والحاجة تفيده ، والست نظيرة ، وسنية هانم . فيهن من اعطاها الزمان البنين والمال ، ومن حرمها من الزوج ، ثم من الولد ، وعاشت في شر حال . كنا نجلس معا على سطح الدار ، تاركات ، في الحر، صالته الرطبة الظليلة . بسبب الست سيمون هانم الفرنساوية ، حتى لا نقلق بالها ، ونعكر دمها ، ونتركها في جو هادىء . كانت صاحباتي يردن ان يرين زوجة ابني حامد الفرنساوية ، ويجلسن معها، ويتحدثن اليها ، لكن اوامر ابني حامد ، وأحمد من بعده ، كانت مشددة بعدم الاقتراب منها ، وتركها في حالها ، ان شاءت جلست معنا ، أو خرجت من البيت ، او اغلقت عليها الباب . وضربت الحاجة تفيده صدرها بيدها شاهقة ، وقالت :

ـ يا خيبتي يا اختي . منذ متى تتحكم النساء في الرجال ؟

فقالت الست سنيه هانم :

ـ اصلها ، يا اختي فرنساوية ، خوجايه ، وكل ناس ولهم حال.

وقالت الست نظيرة :

ـ لكن ، كيف ؟ هو ، اسم النبي حارسه وضامنه ، حامد ، ليس منا . كيف يتركها هكذا تعمل ما تريده ؟

وقالت ام خليل :

ـ وتدور ، في البلد ، على حل شعرها ، في حواري البلد والفيطان . مع الولد ابن المنسي ، الخولي . حتى انهم رأوها تشرب الخمرة في البندر .

فقالت لها الست سنيه هانم :

ـ مثل زوجها حامد . ثم انها نشأت على ذلك يا ناس .

وتكلمت ام ابراهيم فسألتني :

ـ والست سيمون ، اسم الله عليها ، ما الذي تعمله الان ؟

فقالت لها ، انها تكتب لأهلها في فرنسا ، وأنهم يقولون ، ايضا، انها تكتب لجرائد بلادها عن الدراويش . فمصمصت صاحباتي بشفاههن . وقالت الست ام خليل :

ـ عشنا ، وشفنا . نفضح على آخر الزمن في الجرائد .

وقالت الست سنية هانم :

ـ عيني علينا . لم نذهب الى مدرسة . ولم نعمل ما في انفسنا، ولو مرة واحدة . وها هي الواحدة منا تعيش مثل الميته ، ان كانت ميسورة ، او كانت محرومة .

فقالت الست نظيرة :

ـ حياة والسلام . وفي النهاية ، حسن الختام .

سالتني الحرباء ام خليل ، عن سيمون ، زوجة ابني :

ـ هل هي مسيحية مثل اهلها الخواجات ، ام انهـا اسلمت ، وصارت على ديننا ؟

فقلت لها ما قاله احمد لي ، من انها بقيت على ديـن اهلها ، فعادت تسالني بخبث :

ـ والولد والبنت ؟ هل سيكونان مسلمين مثـل حامد ، ام مسيحيين مثل امهما الفرنساوية ؟

فقالت زينب ، زوجة ابني احمد ، باجتهادها الخاص ، وهـي تبتسم :

وضحكن جميعا لما قالته . وزعمت زينب ان حامد ابني وزوجته سيمون قد اتفقا على ذلك . فثرت في وجه زينب قائلة :

ـ كيف تكون ابنتنا ، وهي من لحمنا وصلبنا ، مسيحية ؟

عندئذ قالت ام خليل :

ـ انتم والله لا تعرفون العجوة من الطوب الأحمر . تخميـن تقولونه ، وانتم لا تعرفون اي شيء . طيب . ومن الذي قال له ان يترك بنات المسلمين الطاهرين ، ويتزوج بمسيحية وخوجايه ؟!

شعرت بأن دمي يغلي في راسي ، غيظا من حامد ، ومن ام خليل ، وسالت الست نظيرة ، زوجة واعظ المسجد ، عن حكم الشرع في هذه المسالة : هل يبيح للمسلم ان يتزوج من مسيحية ؟ فقالت ابنـة الاصـول :

ـ عهد الله ، يا اختي . هذا صحيح . الشرع يبيح للمسلم ان يتزوج بمسيحية .

فقالت ام خليل في الحال :

ـ انني اعرف . هاتي لها فتوى ، انت ، وزوجك ، تحلل الحرام ، وتحرم الحلال .

ثم قالت الست نظيرة :

ـ لكن الله ايضا قال : ان المسلمة احسن للمسلم من غيرها . انا سمعت الشيخ يقول ذلك باذني هاتين ، من عدة ايام .

ثم هونت الست نظيره علينا الموقف ، فقالت :

ـ دعونا من هذه السيرة ، وحياة النبي يا جماعة .

وطالت بنا الجلسة على السطح . ثم انصرفت صاحباتي ، لان الست سيمون هانم لم تغادر غرفتها بعد ، منذ طلوع الشمس . ولو انتظرن قليلا ، لرأينها مثل حكيمة المستشفى ، وهي تعالج عيـون النساء والاطفال ، وتامر وتنهي ، ويسمع لها احمد ابنى ، على طوله وعرضه ، ويطيع . وقد رحت اراقبها في دهشة من امرها ، واسال نفسي : «هل تزوج ابني حامد من رجل مثله ؟»

وكانت زينب تسب وتلعن ، والست سيمون لا تعرف انهـا تشتمها هي ، لانه سيكون عليها ان تنظف البيت من جديد ، من آثار اقدام النساء والاطفال ، ومن اجل سيمون وحدها ، بينما تغلق هـي على نفسها باب غرفتها . وكان احمد جالسا كالحيوان الأبكم لا يجرؤ على ان يقول لسيمون كلمة واحدة ، يوقفها بها عند حدها ، فلم يكن بيتنا يوما عيادة للمرضى .

عند العصر ، والست سيمون جالسة في غرفتها ، تغلق علـى نفسها الباب ، جاءتني الست نفيسة القابلة ، وجلست معي علـى السطح ، وراحت تهمس في اذني بكلام ازعجني وافزعني ، قالت لي:

ـ سيمون ، زوجة ابنك حامد ، لا تحلق شعر جلدها ، تحـت الابط ، وبين الفخذين .

وجدت في كلامها شيئا من الصحة ، فقد رأيت الشعر بعيني ، على ضعفها ، تحت ابطيها ، وهي تأكل معنا . وقلت لها ، انني لا اصدق انها لا تنزع ايضا ذلك الشعر الآخر ، بتراب الفـرن ، او بالتراب الاحمر ، او حتى بحلاوة العسل الاسود ، او السكر المعقود بالليمون . فقالت لي الست نفيسة :

ـ الماء يكذب الغطاس . وها هو المئر وها هو غطاؤه .

سالتها :

ـ ماذا تقصدين ؟

فلم تجبني ، لكنها قالت لي ايضا :

ـ سيمون زوجة ابنك حامد ، الذي يشتري ، بماله وشبابه ، الف انثى مثلها ، لم تختتن حتى الآن ، مثل بقية النساء ، بل مثـل بناتنا الصغيرات .

فسالتها :

ـ كيف عرفت ؟

فقالت لي وهي تشوح بكفها :

ـ هذا هو الحال في بلادها .

فجعلت نصفي عاقلا ، ونصفي مجنونا ، وقلت لها :

ـ ما دام هذا هو الحال في بلادها ، وما دام حامد يقبل ذلـك ويرضاه ، فهو وما يحبه ويهواه .

عندئذ اقتربت الست نفيسه من اذني قائلة :

ـ اسمعي يا خالتي . المرأة منا اذا لم تختتن ، تصبح هائجة ، مثل القطة ، تطلب الرجال ، ولا تشبع ابدا . ثم انها ترهق رجلها كل ليلة ، كل ليلة . بل وتخونه ، كلما اتيحت لها الفرصة . وسيمون قد فعلت ذلك ، ولا بد ، مرات كثيرة قبل زواجها من حامد ، وبعد زواجها منه .

ثم سالتني :

ـ انظري بعينيك . الا ترين كيف يجري ابنك احمد وراءها ، هو ومحمود ابن المنسي الخولي ؟ انها ايضا تضحك لكل الرجال ، وتدخل كل البيوت ، وتجلس في المقاهي . وتشرب الخمر ، التي تفسـد الرجل نفسه اذا عرف الطريق الى شربها .

لم ارد ان اصدقها . رحت اؤكد لها ، ان زوجة ابني ، لا بـد وانها قد اختتنت وهي طفلة ، او بعد ان تزوجت من حامد . فحامـد ابني لا يقبل ان تكون زوجته في حالة كهذه تستسلم لكل الرجال . فضحكت نفيسة وعادت تقول لي :

ـ الماء يكذب الغطاس .

سالتها :

ـ كيف ؟

فقالت :

ـ نكشف عليها ، ولا من دري ، ولا من شاف .

فقلت لها خائفة :

ـ واذا علم ابني حامد . ماذا سيفعل ؟

فاكدت لي :

ـ لن يعرف . سيمون امرأة مثلنا ، وستخجل ان تقول له مـا حدث منا . ثم اننا سنهون عليها الأمر ، ونقول لها لماذا فعلنا معهـا ما فعلناه .

اقنعتني نفيسه ، ودخل كلامها الى راسي . فاخذت معها موعدا في الليل ، حين يكون احمد في المسجد يصلي ، قبل ان يذهب الـى المقهى ، ليسهر مع رجال الدراويش وطلبت منها ان تحضر معها ام خليل ، وأم ابراهيم ، ولا تتحدث مع احد سواهما . وتكفلت انـا بزينب . وكنت موقنة انها ستوافق ، لانني اعرف انها تغار مـن سيمون ، وانها سوف تفرح بأن ترى فيها مثل هذا اليوم .

***

بدت لي الحكاية مثل لعبة الاستغماية . قلت لنفسي : ان حامد اذا عرف ما حدث منا مع سيمون ، فلن يكون بوسعه ان يصنع شيئا . سيغضب قليلا ، ويرضيها ، وينسى ما حدث . لكنه سيعـرف ان زوجته ليست افضل مني ولا انظف ، وأن المصرية خير من الخوجايه الف مرة . وسيعرف ايضا احمد ، انني افضل من سيمون الخفيفة اللحم والعظم ، وانه ينبغي ان يقبل يدبه لحصوله على مثلي ، وهـو الفقير الجاهل بجوار اخيه حامد . وحتى اذا رحل حامد بسيمون

غاضبا ، ففي الف داهية هو وماله ، وأستريح من عذابي بسيمون ، وبه ، ومن الجري تحت اقدامهما كالخادمة ، ويعود الي احمد ذليلا وخانعا ، تحت قدمي ، كل ليلة .

كان احمد قد ذهب الى المسجد ليصلي العشاء . وكنا قد اجتمعنا ، انا ، والحماة ، والست نفيسه ، وأم خليل ، وأم ابراهيم، فوق سطح البيت . وكانت هي ، الفرنساوية ، ما تزال في غرفتها، تستمع الى صندوق الموسيقى ، وتكتب ، وترقص ، رأيتها مرات من ثقب الباب المغلق بغير مفتاح . ثم تأكدت من ذلك ، عندما ذهبت اليها قبل ساعة ، بالشاي، كانت تكتب وتكتب مثل الأهوكاتو . كنت اكرهها من قلبي ، وأحسدها على ما هي فيه . حظها من الدنيا خير من حظي، وزوجها افضل من زوجي . وولداها الاثنان فقط ، افضل ، في الصورة ، من اولادي الخمسة . وحان الوقت الذي اشفي فيه غليل نفسي ، وأبرد نار قلبي .

نزلنا من فوق السطح بدون صوت ، وكنت في مقدمة النسوة. وفتحت عليها الباب . كانت ترقص . جفلت لمرآي . ربما كان ذلك لشيء في وجهي ، ولمنظر النسوة من ورائي . قلت لها وأنا اعرف انها تعي ما اقوله :

ـ عندك ضيوف .

وفتحت مصراع الباب على اتساعه ، لتدخل الأخريات . رطنت بلغتها ، تحيينا ، او تشتمنا ، وضحكت لها نفيسه . ونفخت سيمون مستسلمة ، وأوقفت الموسيقى بضغطة اصبع على الصندوق . وأخذت تطبق اوراقها المفرودة على المنضدة . واستدارت فجأة ، حين سمعت صوت الباب وأم خليل تقفله .

لم تكن هناك وسيلة للتفاهم معها . اغلقت نفيسه النافذة ، واحطنا بها ، فدارت حول نفسها باحثة عن مخرج . امسكنا بها ، فصرخت ، وقاومت . خفنا منها ، فأغلقت فمها بكفي ، وطرحناها على السجادة في أرض الغرفة ، ورفعنا ذيل القميص الذي ترتديه. لم تكن تلبس تحته شيئا . وكنا نمسك بها جيدا ، وهي تناضل بكل ما فيها من قوة ، لتتخلص من ثماني أيد . وقالت نفيسة :

ـ ألم اقل لكم ؟

وراحت نفيسة تمارس مهمة تطهيرها بالمقص ، ثم بحلاوة العسل الأسود ، لتزيل القذر الذي تحمله بين فخذيها . وشهقت نفيسة ، وقالت لحماتي :

ـ انظري . الم اقل لك ؟.. انها لم تختتن .

كانت نفيسة ما تزال تكمل مهمتها بالحلاوة ، وسيمون ترتعد بين ايدينا . وطرحت علينا نفيسة فكرة ختانها لسيمون . وتحمست النسوة للفكرة . وقالت حماتي :

ـ يا ليت . ما الذي يمنع ؟ لكن .. اخشى ان تفضحنا .

فقالت نفيسة مؤكدة :

ـ لا تخافي . لن تسمعي لها صوتا .

كانت نفيسة قد انتهت من مهمتها ، فأخرجت من جيب ثوبها موسى حادة ، كموسى الحلاق ، وفتحته ، ومسحته في جانب ثوبها. رأيت في ضوء المصباح عينيها مفتوحتين على آخرهما ، مليئتين بالفزع . فكرت في ان اتركها ، وأدفع الكل عنها ، وأوقظها . تصورت نفسي في مكانها . لكن ، خطر لي انها تبهج حامد بروحها ، وربما ايضا بجسدها (الذي يشبه اللبن بياضا وطراوة) لانها لم تختتن . وكان جسدها بسترخي تحت ايدينا ، وفمها يتوقف عن المقاومة ، والأنين المكتوم المنبعث من انفها ، وعيناها تنطبقان ، وتظلان مواربتين. قلت لنفسي ، ان المسألة قد بدأت . وانتهى الأمر ، ولا ينبغي ان نتوقف الان . ما حدث حدث ، وعلينا ان نتمه . فحتى لو توقفنا، لن يقلل ذلك من غضب حامد وأكدت لنفسي انه سوف يتكتم الأمر، حتى لا يفضح نفسه ويفضحها .

وأخذت نفيسة تمارس مهمتها بسعادة بالغة ، والنسوة واقفات مستريحات ينظرن الى مهمة جليلة ، وفي قلق وسرور شديدين . وجذبت نفيسة ذلك الشيء حتى آخره بيد ، وضغطت بالأخرى بجانب السلاح ، وجذبت حد الموسى بسرعة ، فانتفضت سيمون في أيدينا، وانفصل ذلك الشيء في يدها الاخرى . وتفجر دمها غزيرا . لم نر مثل هذا الدم من قبل ، على كثرة ما شاهدنا من طهارة للصبيان والبنات .

وأخذت نفيسة تدس كل ما معها من قطن لتوقف النزف ، لكن القطن كان يغرق بسرعة في الدماء المتدفقة من المسكينة . ودست نفيسة شالها ، وشال سيمون ، وكل ما طالته يدها ، في الدم المتفزر . والدم لا يتوقف . والقماش يغرق في بحر من الدم . لطمت حماتي خديها وصاحت :

ـ يا مصيبتي .

واصفر وجه نفيسة ، واصفرت وجوه الأخريات ، واختلطت اصواتنا المفزوعة ، المرتعبة ، وسيمون راقدة ، مستريحة ، غير شاعرة بأي شيء مما يحدث لها ، ومما يجري لنا . صاحت فينا نفيسة تنهرنا، حتى لا نفضح انفسنا . وطلبت مني ان آتيها بكل ما لدينا من بن ، وتراب فرن ، وتراب احمر ، وخرجت اجري متعثرة ، اتخبط في كل شيء ، وركبتاي ترتعدان تحتي .

جئت نفيسة بما طلبت . فأخذت تحفن بكفها وتضع على ذلك الشيء . البن ، ثم تراب الفرن ، ثم التراب الاحمر . وانتظرنا . ابتل مسحوق البن ، وتراب الفرن ، والتراب الاحمر . تخضب بالدم الذي كان يتفصد ، ثم توقف. أردت ان نرفعها على السرير لكن نفيسة امرتنا بتركها في مكانها ، حتى يجف الجرح . عندئذ رأيت منظرا لا انساه . حماتي استيقظ فيها شيء كان نائما . تمسك بالموسى ، وتتجه نحو نفيسة ، وتهرب النسوة خارج الغرفة ، وخارج البيت . ونفيسة تتراجع امامها الى الخلف . وهي تقول :

ـ انا لم اعمل شيئا . لم ار شيئا .

واصطدم ظهرها بالباب . وراحت تتحسس فتحته بكفيها من الخلف ، حتى عثرت عليها ، فانطلقت تجري هاربة من البيت . وكانت ام خليل ما تزال بافية فقالت لها :

ـ صبرك بالله يا ام حامد . لن يصيبها شر . امر الله وكتب عليها ، وعلينا .

واستدارت لها حماتي ، فولت ام خليل هاربة من الغرفة . وبقيت انا وهي ، وسيمون . فتحت حماتي النافذة ، وبصقت على الموسى، وطوحت به في المزارع ، وأغلقت النافذة من جديد ، واستدارت الي. جذبتني من شعري ، وراحت تهزني . لم اقاومها . ليتها تقتلني الان، لكنها تركتني ، واستدارت ، ولطمت خديها ، وجلست عند رأس سيمون تربعت ، ورفعت رأسها ، ووضعتها على فخذها ، وانحنت وقبلتها في جبينها ، وقالت لها بلوعة :

ـ حبيبتي يا بنتي .

واخذت حماتي تهتز اماما وخلفا ، وهي تقول لها :

ـ جئت من بلادك ، بقدميك ، لعذابك .

ونظرت الي غاضبة ، وقالت :

ـ وانت ؟ لماذا تقفين هكذا ؟.. لم لم تمنعيني من ذلك . انا كبرت في السن ، وأصابني الخرف . لكن ، انت ، ما زلت شابة ، وعاقلة . هه ! عاقلة ؟!.. كنت تغارين منها ، انت ، ونفيسة ، وام خليل ، كلكن . كلكن . اريد ان ابكي ، ولا اعرف . اريد ان ينزل علي داء النقطة ولا يأتي . يا للفضيحة . يا فضيحتك يا ستيتة . يا فضيحتك يا حامد ، يا حبيبي .

كانت حماتي ما تزال تهتز وهي تتكلم ، اماما وخلفا ، تقطع قلبي بكلامها ومنظرها اكثر مما هو . توقفت لحظة ، وصاحت في وجهي :

ـ امشي اكسري بصلة . هاتي كولونيا . فوقيها يا زينب .

ذهبت بسرعة ، وكسرت بصلة . وجئت بزجاجة كولونيا ، كانت سيمون قد اهدتها الي ، مع حقيبة اليد ، وعدة فساتين . شممتها الكولونيا . دفقت منها على جبينها ووجهها ودلكت لها صدرها . وعصرت البصلة عند فتحتي انفها فأخذت سيمون تحرك رأسها في حجر حماتي ، التي نادتها .

ـ سايمون .. يا حبيبتي .

انت سيمون . واربت عينيها قليلا . رنت الي ، كنت في مواجهتها . بنظرة خاطفة منطفئة ، ثم مالت برأسها جانبا دفعة واحدة، وظلت العينان مواربتين . صرخت .

ـ ماتت . ماتت يا حماتي .

وفقعت من قلبي صوتا داويا . سبتني حماتي . لا تريد ان تصدق انها ماتت . حركتها في يدها . تيقنت من موتها . لطمت خديها . لطمت . لطمت ، وهي تهتز اماما وخلفا ، ورأس سيمون ما يزال على فخذيها .

***

كان لا بد أن انصرف في الأمر على وجه السرعة . فضيحة ما يحدث هذا لسيمون للمهذبة الحلوة ؟ وفي منطقتي انا ؟ اية بربرية الخبر ، بالتليفون ، في البيت ، لضربته بالنار على الفور . كيف يحدث هذا لسيمون المذبة الحلوة ؟ وفي منطقتي انا ؟ اية بربرية هذه التي احكمها ، وعليّ ان أعيش فيها ؟ حتى مع الاجانب . يا عالم ؟ ومع النساء؟ هه. عصفور من الشرق؟! فنديل ام هاشم ؟! كيف وصلنا الى هذا الدرك الأسفل ؟! مسكين انت يا حامد !! النداهة نادتك ، فقطعت بحارا وبلادا ، لتقفد أعز ما تحرص عليه ، هنا ، في بلدك .

صحبت الطبيب معي في السيارة . ابلغته في الطريق كل ما حدث . كما رواه لي العمدة . وتركته ليفكر ويتصرف . دار بخاطري ان اقبض على العمدة ، ومشايخ الدراويش والخفر ، وأحمد واظل اجلدهم جميعا حتى الموت ، بدون رحمة . لكني ، اذا فعلت ذلك . قلت لنفسي ، فأنا اكرر نفس ما فعلته نساء الدراويش ، المتشحات بالسواد . سألت نفسي : ما الذي يجعلنا نحقد على كل ما هو جميل ، وندمره بأيدينا ؟ الكلوبات التي احالت ضوء الليل الى نهار في الدراويش . وسيمون ؟ مسكينة سيمون !! عزيت نفسي بأن ما حدث لحامد ، ولزوجته ، كان بتدبير امه ، وزوجة اخيه ، وغفلة هذا البغل الذي هو اخوه . لكن ، هل يجد حامد عزاء فيما حدث . بفدميه جاء لعذابه الأبدي . لو لم يغادر بلده لما حدث له كل ما حدث . لو لم يغادر باريس ، مستجيبا لنداء النداهة لما حدث له كل ما حدث . لو .. لو .. لو.. يبدو لي انني سأجن .

قلت للطبيب :

ـ ماذا ستفعل ؟

قال لي ، دون ان يدير وجهه نحوي :

ـ ربما تكون حية .

قلت :

ـ واذا لم تكن ؟

قال في بلاهة :

ـ ستكون قد ماتت .

سألته مرة اخرى :

ـ ماذا ستفعل ؟ كيف ستتصرف ؟

نظر الي نظرة باردة ، ولم يقل شيئا . قلت :

ـ والعمل ؟ السبب الأصلي . اسمع . مهما كان السبب ، لا ينبغي ان يعلن أو يعرف ، او يخرج من دائرة البندر .

سألني :

ـ كيف ؟

قلت :

ـ تصرف . أنت طبيب . وتعرف آلاف الأسباب للموت .

ودار بخاطري ان الحياة نفسها سبب كاف للموت . سألني :

ـ والعدل ؟

قلت بحزم :

ـ اسمع . لست قاضيا . فكر في الفضيحة . فكر في مصيري، ومصير كل مسئول في المديرية ، ومصيرك ، وموقف الحكومة .

قال الطبيب :

ـ واذا فعلت . من يضمن البلاغات التي يمكن ان ترفع .

قلت :

ـ اسمع . البلاغات ، لو حدثت ، لن تصل الى اي جهة ، حتى ولو كانت بالبريد .

قال :

ـ وحامد ؟.. من يضمن حامد ؟

قلت بحيرة :

ـ ربنا يستر . ألهم الان ان تأمر بدفنها ، على وجه السرعة .

عاد يقول :

ـ وحامد ؟

قلت :

ـ سنرسل في طلبه ، بعد ان ينتهي كل شيء .

دخلنا الدراويش ، ونزل الطبيب معي ، وتبعني الضابط المعاون والعسكر . تركنا السيارات وراءنا عند القنطرة . كانت الدنيا شديدة الظلام ، فقد غاب القمر قبل ساعة او اكثر . وجدت الدراويش كلها تعرف ما حدث ، وتضيف عليه . وكان خلق كثيرون يحيطون بالبيت . اصدرت الأمر بعودة الكل الى بيوتهم . وأطلقت العسكر والخفراء ، لتنفيذ هذا الأمر بكل شدة ، وضرب كل مخالف بمنتهى القسوة . دخلت بيت البحيري كان العمدة جالسا في الصالة مطاطىء الرأس . صحت به بغلظة ، فنهض واقفا . رفعت يدي وصفعته على وجهه . رأيت احمد واقفا في حالة انهيار . اردت ان اقبض على تفاحة آدم البارزة في عنقه ، بأسناني ، وأنزعها له ، لكنني بصقت في وجهه ، فلم يرفع يده حتى امسحها . وكان الطبيب قد دخل الى غرفتها . بي شيء يريد أن يراها . لكنني اخشى ان ارى موتها. موتها هي بالذات . وظللت ادور حول نفسي في الصالة ، حتى خرج الطبيب من الغرفة . وأغلق الباب وراءه ، وقال بعد لحظة ، وهو يحدق في وجوهنا :

ـ ماتت !!

وراح يكتب ورقة ناولها لي قائلا :

ـ هذا تصريح بالدفن .

قلت بصوت عال ، ليسمع الجميع . الحاضر منهم والغائب ، وانا اغمز للطبيب بجانب عيني :

ـ كيف ماتت ؟

قال بيرود بالغ :

ـ ماتت اثر نوبة قلبية ، حادة ، ومفاجئة .

كررت في اثره ، بصوت مرتفع آمر :

ـ سمعتم . ماتت بذبحة صدرية . مفهوم .

ثم قلت للعمدة :

ـ هاتوا نجارا ليعد لها صندوقا . سندفنها الليلة في مقابر الأسرة .

والتفت لأحمد قائلا :

ـ أتسمعني ؟ مقابر الأسرة . لكي تذكرها دائما ، انت ، وأمك ، وزوجتك ، وكل الدراويش ، يا غجر .

نطق احمد وقال باستنكار :

ـ صندوق ؟ ودون تغسيل ؟

صحت في وجهه :

ـ اخرس ..

فخرس على الأثر . وجلست افكر فيما ينبغي أن افعله بنفيسة. قررت انه لا ينبغي ان تفلت من العقاب ، مهما كان سببه المعلن . وأخذت الطبيب جانبا ، وكانت الصالة خالية ، ليس فيها من احد سواي ، انا وهو ، والضابط المعاون ، وجلسنا . فكرت في المحنة الأليمة التي سوف يواجهها حامد غدا ، ابتداء من غد ، ان بقي في الدراويش ، وان هرب عائدا الى باريس . فكرت ان سيمون قد ماتت، والطبيب يعرف الموت جيدا معرفته بالحياة . قلت له هامسا :

ـ قل لي .. ما سبب الموت الحقيقي ؟

كان الطبيب شاردا . فقال لي باضطراب ، والدهشة مرتسمة على وجهه :

ـ نعم . آه .. موتنا ، ام موتها ؟

القاهرة

سليمان فياض